خلق المرأة

والمقابلة بين طبائعها وطبائع الرجل

بحث علمي تحليلي

يتناول ما في المرأة بفطرتها من المواهب والسجايا وما اكتسبته منها بتأثير تربيتها ومعيشتها في العصور السالفة ويشرح احساس المرأة وذكائها وارادتها تشريحاً وافياً فيبين ما ينطوي عليه قلبها من الحب والبغض والانانية والغيرة وما في صدرها من الرحمة والشفقة والحسد والغيرة الخ . . . الخ . . . وفيه درس لمصير المرأة وغايتها وما تحتمله حالتها من اوجه التحسين المختلفة

تأليف

هنري ماريون

الاستاذ سابقاً في كلية الآداب في باريس

تعريب

اميل زيدان

محرر الهلال

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩١٨



والمقابلة بين طبائعها وطبائع الرجل

بحث علمي تحليلي

يتناول ما في المرأة بفطرتها من المواهب والسجايا وما اكتسبته منها بتأثير تربيتها ومعيشتها في العصور السالفة ويشرح احساس المرأة وذكاءها وأرادتها تشريحاً وافياً فيبين ما ينطوي عليه قلبها من الحب والبغض والانانية والغيرية وما في صدرها من الرحمة والشفقة والحسد والغيرة الخ ... الخ ...
وفيه درس لمصير المرأة وغايتها وما تحتمله حالتها من أوجه التحسين المختلفة

تأليف
هنري ماريون
الاستاذ سابقاً في كلية الآداب في باريس

تعريب
اميل زيدان
محرر الهلال

مطبعة الهلال بشارع نوبار باشا بمصر
سنة ١٩١٨

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

مقدمة المعرب

ان هـذا العصر الذي آلى على نفسه تهديم كل قديم بالٍ يمتاز ـ فيما يميزه ـ بحركتين اجتماعيتين ليس يعرف خطورتهما الا من راقب سيرهما العجيب في الزمن الحديث وهما :

الحركة الاشتراكية

والحركة النسائية

أما الحركة الاشتراكية فانها ترمي في جوهرها الى التسوية بين البشر في الحقوق والواجبات والغاء الاثرة التي نالها البعض من جراء احتياز الاموال والاملاك وتوارثها جيلا بعد جيل ، حتى يتسنى لكل عامل أن ينال ثمرة تعبه الحقة فلا يعود ثمت امتياز الا لاقدر الناس على خدمة الناس

وأما الحركة النسائية فغايتها الاولى رفع مقام المرأة واعتاقها من عبوديتها وترقية جميع شؤونها المادية والمعنوية ، بحيث لا تعد متاعاً أو اداة للزينة والزخرفة ، بل مخلوقاً مستقلاً له غاية خاصة من الوجود يدأب في بلوغها

وبعبارة وجيزة ان الحركة الاولى ترمي الى هدم الحواجز القائمة بين الطبقات الاجتماعية في حين ان الحركة الثانية تروم ابطال التفاوت بين الشطرين اللذين يؤلفان البشرية

وكأن هذا الطحان الهائل لم يكن الا لينشط هاتين الحركتين . فلقد تقدمتا في بضع سنوات اضعاف تقدمها في العقود الاخيرة . حتى لم يبق مجال للشك لدى كل متبصر في أن العالم على وشك الدخول في عصر

انقلابات اجتماعيــة عظيمة تتناول النظم الاساسية التي اعتمدها البشر دهوراً طويلة

ومهما يكن الامر فليس لهذه المسائل عندنا معاشر الشرقيين ما لها من الشأن عند اهل الغرب ولم تقتض احوالنا الاجتماعية والاقتصادية درس تلك المواضيع بما تستوجبه في العالمين الاوربي والاميركي من العناية والتدقيق . ولـكن يتحتم علينا أن نراقب سيرها ونرى ما يتم من امرها عند الغربيين حتى نستفيد من اختباراتهم حين نبلغ مرتبتهم . فان سيل التقدم الحاضر جارفنا يوماً لا محالة ـ وليس ذاك اليوم في نظري ببعيد . والا تخلفنا عن مجرى المدنية الحديثة كما تخلفت الشعوب التي نسميها منحطة عن مجاري التقدم البشري في العصور السالفة

وعندي أن المسئلة النسائية اجدر المسئلتين بعنايتنا . ولقد تنبه غير واحد من كتّابنا الحديثين الى حالة المرأة الشرقية وما هي عليه من الجهل والضعف فكانت كتاباتهم جرثومة مباركة لم تلبث ان نمت برعاية المستنيرين من ابناء الناشئة الجديدة

وليس من شأن الشرقيين الآن ان يبحثوا في تخويل المرأة حقوق الانتخاب او نحو ذلك من المسائل التي لن يطلب منا حلّها الا بعد اجيـال طويلة . وانما حاجتنا ماسة الى تعليمها التعليم المتين الملائم لحالتها وتربيتها التربية الصالحة التي بها تبرز ذاتيتهـا ويعلو شأنها وتسمو اخلاقها . فاذا كتب للشرق أن ينال قسطه من السعادة والهناء فلن يكون ذلك الا عن هذا الطريق

ولما كان « كل سعي يرمي الى ترقية المرأة واصلاح شؤونها ينبغي أن يتقدمه درس واف في أخلاقها وأطوارها ، ثم في مصيرها وغايتها التي يمكن

ان تكون » فقد رأينا ابراز هذا الكتاب للعالم العربي على أمل ان يكون فيه للمشتغلين بتهذيب المرأة بصيص نور يعينهم على استجلاء ذلك الموضوع الخطير

***

ولطالما اشتقت الى مطالعة كتاب يشرح أخلاق المرأة وطبائعها وسجاياها تشريحاً علمياً وافياً . وما كنت لأوفق الى مرادي حتى كان الصيف الماضي فعثرت على هذا الكتاب ولم أكد أطالعه حتى وقع من نفسي أحسن موقع . ومع ان الكتب النفيسة التي يجدر نقلها الى اللغة العربية كثيرة فقد عولت على ترجمة هذا الكتاب من دونها لانه سلس المعاني قريب الى الافهام — مع كونه علمي المنهج

أما المؤلف فهو هنري ماريون الاستاذ سابقاً في كلية الآداب في باريس وهو من الاخصائيين في فنون التربية ولا سيما تربية البنات . وقد كانت مادة هذا الكتاب موضوع محاضرات القاها في تلك الكلية ولم تنشر الا بعد وفاته . ومع ان المؤلف درس أخلاق المرأة بوجه الاجمال فانه — بطبيعة الحال — أعار الفرنسية معظم عنايته . ولعل ذلك كان لحسن حظنا فان الشرقية شديدة الشبه بالفرنسية في روحها وخلقها وأطوارها الاساسية

***

ولكن هذا الكتاب لن يُرضي فريقين من قرائه : اولهما فريق من الرجعيين سوف ينكر على المؤلف تسامحه في شأن المرأة وتعظيمه لمقامها ، وفريق آخر — ولا يكون الا من السيدات — ينكر بعض ما جاء

فيه من الصفات التي اتصفت بها المرأة . فكلمتي للفريق الاول ان قد آن لنا خلع ثوبنا البالي وتغيير نظرنا في المرأة ، وان المؤلف جدير بالاعجاب لرزانته واعتداله . أما الفريق الثاني فاستميحه عذراً على ما لا يروق في عينيه . ولكن لا يبرح من ذهن كل قارئة لهذا الكتاب ان الكمال لله وحده وان الانسان مفطور على الضعف — ولا سيما ان الفضائل والنقائص مترابطة على الدوام أي ان ما نحسبه فضيلة من وجه يعد رذيلة من وجه آخر . ولا يتسنى لنا تقدير الكتاب حق قدره الا باستيعاب روحه وليس يجوز التمسك بفقرة منه دون بقيته

***

ولا حاجة الى الافاضة في الصعوبات التي يلقاها مترجم الكتب العلمية الى اللغة العربية . فقد تكبدنا مشقة عظيمة في تأدية مرامي المؤلف الدقيقة . ولم نرَ من الحكمة اعتماد كلمات معينة للدلالة على المراد من الكلمات الإصطلاحية الفرنسية وانما كان دأبنا على الدوام ترجمة فكرة المؤلف في ذاتها قبل ترجمة الفاظه . وهذا ما يضطر اليه كل من ينقل شيئاً من العلوم الحديثة الى اللغة العربية — ما دمنا مفتقرين الى مجمع لغوي رسمي يقرر قواعد الاشتقاق والتعريب

اميل زيدان

الفصل الاول

تمهيـــــد

لاجل أن نتبين التربية الملائمة لمخلوق من المخلوقات يجب أن ننظر الى مواهبه الراهنة ثم الى مواهبه الكامنة ، أي الى ما هو عليه الآن وما عسى أن يكون عليه في مستقبل الايام

فكل سعي يرمي الى ترقية المرأة واصلاح شؤونها ينبغي أن يتقدمه درس واف في اخلاقها واطوارها ، ثم في مصيرها وغايتها التي يمكن أن تبلغها

وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الكتاب

مباحث الكتاب

ويجدر بنا عند بدء عملنا أن نلقي نظرة شاملة الى المباحث التي ينبغي لنا أن نطرقها فنقول :

ان اخلاق المرأة بوجه عام ، أو اخلاقها بوجه خاص في زمان ومكان معينين ، تقف على عاملين أساسيين :

أولهما حالتها الاجتماعيـــة في العصور السالفة . فان جانباً عظيماً من اطوارها ومنازعها يرجع الى طريقة تربيتها ونوع معيشتها على ممر الاجيال

وثانيهما تكوينها الجسماني . أي تركيب اعضائها وما لوظائفها الحيوية في مزاجها من أثر . وهذا العامل أشد من العامل الاول واعظم شأناً

فلا بد لنا اذاً من الابتداء بدرس هذين العاملين

أما فيما يخص العامل الاول – أي العامل الاجتماعي – فسننظر فيـه الى شأن المرأة في الماضي لنرى كيف تطورت حالتها في العصور المختلفة وما كان من تأثير ذلك في اخلاقها . وسيظهر لنا في أثناء هذا الدرس كيف تخصص الجنسان بالتدريج في الوظائف الاجتماعية فاحتاز كل فريق جانباً منها وتحددت مناطق العمل بينهما . ولعل ذلك يحدونا الى التريّب بدعاوي القائلين بالمماثلة التامة بين الرجل والمرأة اذ يتضح لنـا أن تلك المماثلة مخالفة للطبيعة ومضادة لمجرى التقدم البشري من قديم الزمان

على اننا سنرى من جهة أخرى أن المرأة ـ وان تكن قــد تميزت عن الرجل شيئاً فشيئاً في الوظائف والاعمال ـ فانها ما برحت تسمو الى مستواه في الشأن والمقام . حتى اصبحت مثيلة له في نظره هو اولاً ، وفي نظر الشرع والعرف ثانياً . ولا يُظن ان في هذا القول تناقضاً . فليس التميز في العمل دليلاً على التفاوت في المرتبة ، كما أن التساوي في المكانة لا يعني التماثل في الوظيفة

ومهما يكن من ذلك فانه يتعذر علينا انكار ما قد جاهرت به غير واحدة من أن الفروق التي نشاهدها بين اخلاق الجنسين ـ وان تكن باعثاً على تميز وظائفهما الاجتماعية ـ فانها من جهة أخرى تنشأ وتتميز بفعل تلك الوظائف نفسها . حتى لقد غالى البعض في هذا الرأي فقالوا أن الطبيعة منحت الرجل والمرأة مواهب متماثلة وأن ما بينهما من الفروق لم ينجم الا عن العادات والشرائع . على أن قليلاً من التفكير يبين لنا وجه المغالاة في هــذا القول : اذ كيف نعلل نشوء العادات وسن الشرائع ، على صورها التي عهدناها ، ان لم يكن لها في الطبيعة مصدر تستوحيه وأساس تقوم عليه؟ ومع ذلك فلا ريب في أن العادات والقوانين قد ضخمت الفروق الاصيلة وبعَّدت مسافة الخلف بين الجنسين . ولما كانت القوانين والشرائع انما هي في الغالب من وضع الرجل فلا يسعنا الا التسليم نوعاً ما بصحة ما قالته امرأة في الدفاع عن جنسها وهو قولها : « تكاد معائبنا تكون جميعاً جرائم اقترفها الرجل » ، وما قاله غريم (من اهــل القرن الثامن عشر) وهو قوله : « ان معظم النقائص التي نعيبهــا على المرأة هي من صنع الهيئة الاجتماعية والتربية الفاسدة . . . »

أما العامل الثاني ـ وهو العامل الجسماني الفسيولوجي ـ فلا بد لنا من تمحيصه وانعام النظر فيه . فلقد ارتكب بعض الكتاب اغلاطاً جسيمة في هذا الباب ووصموا المرأة بما لا ينطبق على الواقع ، كميشله الذي مثّل لنا المرأة كأنها مريضة بفطرتها

على ان هــذا الدرس خطير الشأن . فينبغي ان نتفطن على الدوام لاهمية الفوارق الطبيعية بين الجنسين . « فالجنس أصل من التربية » كما قال مودسلي ، أي ان المميزات التي منحتها الطبيعة للمرأة أثبت وأعمق من الصفات التي قد تكتسبها بالتربية . وعلى هذا لا نرى داعياً لتخوف البعض من انقلاب المرأة رجلاً بفعل التعليم والتربية . فانه يتعذر على الانسان مجاوزة الحدود التي أقامتها الطبيعة له

ومتى أحطنا بالعوامل الرئيسية التي اعتملت خلق المرأة تيسر لنا درس ذلك الخلق بالتدقيق . وقد يرى قوم في الاقدام على هذا الدرس جرأة لا يسهل تبريرها ، اذ يتساءلون : هل في الامكان تحديد مميزات المرأة واستبانة أخلاقها مع ما هي عليه من التكتم والتقلب ؟ فالجواب انه قد يصعب الوقوف على أخلاق امرأة واحدة - وسنرى فيما يأتي سبب ذلك - وأما النساء اجمالاً فان كان ثمت ما يميزهن عن الرجال في شعورهن وذكائهن وسلوكهن ، فان من الميسور استجلاء ذلك واستخلاصه بالمقابلة بين الجنسين .

وسيستغرق هذا الدرس قسماً كبيراً من الكتاب لانه يبين لنا الاساس الذي ينبغي انما اعتماده في تربية المرأة وتهذيبها ، فضلاً عن انه في نفسه شيق ممتع .

و بعد هذه المقابلة يجدر بنا ان نقول كلمة عن مصير المرأة وغايتها ، أي ان ندرسها - لا كما كانت في الماضي ولا كما هي اليوم - بل كما تستطيع ان تكون وكما ينبغي ان تكون . واذا عرفنا ذلك أدركنا ماهية التربية التي بها تستعين المرأة على تحقيق غرضها من الحياة : فعلى معرفة الغاية يقف اختيار الوسيلة

ولا بد لنا في أثناء ذلك من البحث في الحركة النسائية واستقصاء أمرها . فانها ذات شأن في هذا العصر ، وقد تؤدي الى احداث انقلاب خطير في المجتمع العمراني تنال معه المرأة مكانة لم تعهدها في العصور الغابرة . على ان مطالب النساء لا تزال مضطربة غير واضحة ، ولم تتفق الآراء بعد في هذا الموضوع . ولكن مما لا ريب فيه أن تلك الحركة ما برحت تعظم وتتضخم في الزمن الحديث ، ولا سيما ان نفراً من كبار الكتاب والفلاسفة - كجون ستيورت ميل - دعموها بنفوذهم ومؤلفاتهم

مصادر الكتاب

وخليق بنا الآن ان نرى أي المصادر نعتمد للقيام بهذا الدرس وأي المناهج نسلك . كثيرة هي المؤلفات التي تكلمت عن المرأة . ولكننا لكثرتها لا نذكر لها قائمة في أول هذا الكتاب حسب العادة المألوفة . لا لاننا لم نطالعها أو لم نستفد بمطالعتها ، بل لتبعثر فوائدها وتشتت موضوعاتها . فقد يطالع الواحد كتاباً كاملاً فلا يجد فيه الا اليسير من الآراء والمعلومات الجديرة بالحفظ والتدوين ، فضلاً عن خلو معظم الكتب في هذا الباب من المباحث الجدية المتماسكة الاطراف على أسلوب منطقي معقول

ولعل أغزر المصادر وأفضلها ما خلَّفه الكتاب الاخلاقيون ـ مثل لابروييرـ ولاروشفوكو وبسكال ـ ولا سيا الذين طرقوا منهم موضوع تربية البنات ـ كفناون ومدام نكردي سوسور ومدام دي رموزا ـ وأخص بالذكر أيضاً أولئك الذين كان لهم من مهنتهم الاكليريكية ما سهل لهم مهمة الاطلاع على مكنونات قلب المرأة ـ كمونسنيور دوبانلو

اما الآثار الادبية المتداولة ـ كالروايات على أنواعها ـ ففيها بعض الفوائد . ولكن لابد لطالبها من الغوص عليها لاستكشافها في مخبآتها . ومع ذلك فان هذه الآثار أجمع للعبر من تلك التي تقتصر على مدح النساء أو ذمهن لمجرد المدح أو الذم ومن غير الاعتماد على أساس علمي صحيح . خذ مثلاً بوسويه الكاتب الفرنسي الشهير فانه أراد الحط من مقام المرأة بتذكيرها انها استخرجت من جنب الرجل وصنعت من عظمة اضافية لا شأن لها . على ان مريدي الجنس اللطيف اعتمدوا على هذه القصة نفسها لبيان تفوق المرأة . فقالوا ان الله برأ الخلق مبتدئاً باحط المخلوقات ثم تدرج الى أرقاها . فكما ان آدم سَما على سائر الخليقة ، كذلك حواء التي جاءت بعده سمت عليه لانها أتم منه وأقرب الى الكمال : فقد صنعت من عظمة والعظم أمتن الاجزاء في الانسان ، بل من ضلع ، أي من أسمى جهة في الجسم وهي جهة القلب . ومن هذا القبيل أيضاً استشهاد البعض بتجسد السيد المسيح ـ وهو ابن الله عند النصارى ـ في شكل رجل لا في شكل امرأة . وعلى ذلك يجيب الفريق الآخر انه انما فعل ذلك من قبيل المغالاة في الاتضاع . وقس على ذلك اقوالاً كثيرة قد تلذ مطالعتها على سبيل الفكاهة ولكن يستحيل اتخاذها أساساً لبحث جدي مفيد

ولا يبرحن من الذهن ان الذي كتب عن المرأة في الغالب انما كان الرجل . ولو انها كانت الكاتبة لرأينا الحال بخلاف ذلك . بل انه حالما أتيح لها ابداء رأيها أسمعت الرجل تظلمها وشكواها وهزءها أيضاً واتهمته بالاثرة والاستبداد

وان أقل قيمة في نظري من كل ما طالعته في هذا الباب نصائح المتقشفين والقديسين الذين ناصبوا المرأة العداء فنهوا عن معاشرتها بل حرموا الاقتراب منها ، كأنها في نظرهم مخلوق نجس مخيف . على انهم بذلك انما يقيمون بيننا وبين معرفتها سداً منيعاً ، فليست المسبة حكماً وأحرى بها ألا تكون درساً . بل اني أرى في تلك الاقوال تكريماً للمرأة واعترافاً بسلطانها . فان وصف المرأة بانها شيطان ، وتسميتها « مشعل

الشيطان » و« باب جهنم » ، وموافقة ترتوليان على قوله ان « رؤيتها شر وسمعها أشر ولمسها مريع » ، وتفضيل « صفير الحراذين على غناء المرأة » كما قال القديس سيبريان ، وترديد قول الجامعة « وجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها اشراك ويداها قيود » — كل ذلك انما يدل على اقتدار المرأة وسطوتها ، وليس يدل على انصاف قائليه أو صدق نظرهم

فلئن سلمنا للرجل بان المرأة تحدث المتاعب له ، حق علينا ان نسلم لها ان الرجل يحدث المتاعب لها أيضاً : لانهما يتبادلان التأثير على الدوام. واذا كان ثمت ما يعادل الشر الذي تحدثه لنا النساء فما ذلك الا الشر الذي نحدثه نحن لهن

ولذا فاول ما يتحتم علينا في درسنا ان نبدأ بطرح تلك السفاسف والاقاويل جانباً . كما اننا لن نستعين بالآثار الادبية الا لتستحثنا على درس المسائل التي نخوضها لا للاعتماد على آرائها

أما مصادرنا الحقيقية فهي الطبيعة والتاريخ والعلم، وعلى الخصوص الحياة الاجتماعية التي نشاهدها كل يوم

روح الكتاب

ولنبين الآن المبادىء التي نعتمدها في درسنا هذا والروح العامة التي نسترشدها في خلال ما نطرقه من المباحث . فتلك مسائل يحسن الاجابة عنها قبل الدخول في جزئيات موضوعنا

مهما تكن في المرأة اوجه النقص والضعف التي قد وصفتها او تصفها بها علوم التاريخ والنفس والفيسيولوجيا فان لها رغم ذلك شخصية مستقلة ، اي انها كالرجل مخلوق ذو غاية من الوجود يدأب في بلوغها . ولئن سلمنا بالفوارق الجسمانية والعقلية بين الرجل والمرأة فليس يترتب على ذلك تسليمنا بتفاوتهما في القيمة . فاختلاف المواهب لا يمنع التساوي في المكانة . بل ان الطبيعة قد ميزتهما وحددت لكل منهما مجالاً يعمل فيه . فليس ثمت تساو بينهما الا في تنويع عملهما

على ان هناك توافقاً اساسياً يجمعهما رغم ذلك . والا لما امكن اتحادهما وائتلافهما : فانهما الشطران اللذان يؤلفان « الانسانية » . وبهذا الاعتبار يشتركان فيما للانسان

بصفة كونه انساناً ـ من الحقوق البديهية وما عليه من الواجبات الاولية . فاذا نظرنا الى المرأة هذا النظر لم نبخسها قسطها من المقام والشأن ولم نتردد قط في انماء « بشريتها » ومنحها نصيبها من لذات الحياة الجسمانية والعقلية والاجتماعية.

ولئن سلمت مع العلم الاجتماعي الحديث بان تقسيم العمل بين الجنسين مقياس للرقي والتقدم الا اني ـ بصفة كوني اخلاقياً صميماً ـ ارى المقياس الامثل لذلك في مبلغ الاحترام الذي تناله المرأة ، في رفعة شأنها وعلو مكانتها ، في التساوي المعنوي الذي تقره العادات والشرائع والرأي العام

ولهذا المبدأ نتائج خطيرة الشأن فيما يتعلق بتربية المرأة . فانه ينبغي تهيئتها للتمتع بالحياة التامة كي تعرف الواجب وتقدر المسؤولية . وبعبارة أخرى ينبغي تربيتها التربية الوافية ، لا تدريبها فقط على ارضاء الرجل والخضوع له . ولئن فرضنا على المرأة طاعة الرجل فان من الواجب أن تصدر تلك الطاعة عن رضى وقبول ، لا عن قهر واضطرار . وليس ضعف المرأة ـ اذا كان فيها ضعف ـ حجة لحرمانها من لذة العلم والحقيقة والاكتفاء بتكييفها وفقاً لاهواء الرجل ورغائبه . بل ينبغي أن نقول مع فنلون : «كلما كنَّ ضعيفات تحتّم علينا تقويتهنَّ ». وليس ما يقوي حياة المرأة المعنوية سوى غرس المبادئ الصالحة فيها وتدريبها على الحكم والتمييز لوحدها واقامة مثل اعلى لها تطمح اليه بما فيها من شعور وعقل وارادة

قالت مدام دي ريموزا : « لن يكون عقل المرأة في أمان ما زال محكم الاقفال لا تنفذ اليه الافكار العامة . فاذا جاء زمن تزعزعت فيه سلطة العادة والتقليد ـ وهما القوتان اللتان تحفظانها ـ فعلى أي مبدأ تسير حينئذٍ وأي طريق تسلك بعد فقدانها ما كان يحميها ويرشدها ؟ » هذا ما قالته تلك الكاتبة البصيرة ولا ريب في ان هذا القول شديد الموافقة لعصرنا هذا الذي تزعزعت فيه اركان كل قديم مألوف . فان روح الحرية العامة التي بها يمتاز هذا العصر قد تسربت الى المرأة : فتراها اليوم تطالع الصحف وتحضر التمثيل وتسمع كل ما يقال حولها وترى كل ما يجري امامها ، وبعبارة وجيزة انها تتنشق بحكم الاضطرار جو العصر الحاضر بكل ما فيه من العناصر الصالحة والفاسدة . وسواء أرضي الرجل بهذه الحال أم لم يرضَ بها فقد اصبح من المتعذر اليوم استلاب المرأة حريتها . وانما السهل الميسور تدريبها على استعمال تلك الحرية بالحكمة

والبصيرة . فلا خلاص لنا ولها الا بجعلها رزينة رصينة حتى تصبح رشيدة نفسها.

هذه حقيقة لا تقبل نقضاً . ولئن تحسر بعضنا على انقضاء الزمن الغابر فليس في استطاعتنا اعادته . على اني لست من الذين يتحسرون على الماضي – وسأبين سبب ذلك بعد . والجملة انه ينبغي تربية المرأة بنفس العناية الممنوحة لتربية الرجل ، ولسنا نريد بذلك أن تكون التربيتان متماثلتين

ان من الخطأ المبين عد المدنية كأنها صنع معشر الرجال وحدهم. فالنساء – حتى متى يخضعن لنا وفي حين نحكمهن ونتحكم بهن – صاحبات تأثير شديد في الهيئة الاجتماعية . وقد أصاب شريدان عين الحقيقة في قوله : « النساء يحكمننا فلنجعلهن كاملات . فكلما زدناهن نوراً زدننا استنارة . فعلى تهذيبهن تقف حكمتنا ». أجل، انه لمن الغريب ان يكون الرجل قد تعامى عن مصلحته أو أساء فهمها الى حد ان أهمل تربيـة تلك التي تحمل اسمه وتربي أولاده وتتصرف بشرفه

فهل من يجهل ان من المحال على الرجل ان يفصل بين شرفه وشرف امرأته ، وان يحتفظ بمقامه اذا لم تحتفظ هي بمقامها ، وان يكون عالي الرأس اذا كانت خافضته ، وان يقوم بكل الواجب عليه اذا لم تعنه عليه بعطفها وحسن معاملتها ؟

واذا صح ذلك في الحياة الفردية فلا ريب في انه ينطبق على الحياة العمومية أيضاً . قال فنلون : « ان الرجال – وان كانوا أصحاب السلطة السياسية – لا يستطيعون بقراراتهم توطيد أي اصلاح ما لم تعنهم النساء على تنفيذه ». وما ذلك كما قال كوندورسيه « الا لان الرجال يصنعون القوانين والنساء يصنعن العادات والاخلاق». ولله در ادجار كينه القائل: « . . . وهكذا تشترك النساء مع الرجال في تكوين الجماعات . فان احضانهن لا تحمل الاطفال فقط بل تحمل الشعوب ». لذلك يجدر بنا ألا تقنع بتربية النساء تربية سطحية لاجل الزينة والزخرفة فان البلاد في حاجة ماسة اليهن : فاذا لم يكن رصينات لم يكن كذلك اخوتهن وازواجهن واولادهن ، واذا لم يقمن بوظيفتهن خير قيام تعذر على اولئك اتمام ما هو مفروض عليهم نحو قومهم و بلادهم

وعلى المرأة في المقام الاول ان تدرك شأنها في حياة المنزل وان تبذل جهدها لكي يسود فيـه السلام والنظام والحبور وكل ما يقرب ويجذب وما يجعل الاسرة متحدة سعيدة شريفة . هذه هي على الخصوص وظيفتها الاجتماعية ، تلك الوظيفة الطيبة المباركة .

ولكنها لا تقوم بها أحسن قيام الا اذا كانت على بينة من أمرها ، حتى تعرف الواجب عليها وتدرك خطورة شأنها من الوجهة الاجتماعية ، فترى الوطن خلف العائلة والجامعة الكبرى خلف الجامعة الصغرى

لقد اجمع الناس اليوم على ضرورة تهذيب الشبان تهذيباً جدياً متيناً ، حتى يصبحوا خدمة صالحين للوطن . على ان ذلك لن يتأتى لنا ما لم تربّ البنات ايضاً ليكن زوجات وأمهات صالحات لتلك الناشئة . فما اعظم العون الذي يجنيه المشتغل في الحياة العامة متى كان بجانبه امرأة نيّرة تدرك معنى الواجب والخدمة والوطن !

فالنساء كالرجال يجب أن يقوى فيهن الشعور بالمسؤولية وروح التعاون حتى يتم ائتلاف الطبقات الاجتماعية ويخيم السلام . ولست تجد مسئلة من المسائل الخطيرة اليوم - واولها مسئلة حقوق المرأة - يستطيع الرجل ان يبت فيها وحده ، بل يتحتم عليه استشارة المرأة واستمالتها الى جانبه . والا فالنزاع يكون كريهاً ومنهكاً لقوى الفريقين . وما عسى ان يكون امر جماعة لا يحفظ النساء فيها غير سطوة الرجال ؟

انه ينبغي تربية البنات لا لفائدتهن فقط بل لفائدة الوطن والجمعية البشرية ، سواء في ذلك بنات العامة و بنات الخاصة . ولا يجوز عد المرأة - من أي الطبقات كانت - مخلوقاً للزينة والزخرفة فقط . فذلك يحط بجدارتها وسعادتها كما يخل بوظيفتها الاجتماعية

ولقد أدرك المعنيّون بامر مستقبلنا انه يتعذر علينا اصلاح عاداتنا وأخلاقنا من غير معاونة النساء . فلئن كان لضعفهن وطيشهن يد في قعودنا وتقهقرنا فلا نجاة لنا الا بتربية المرأة التربية الصالحة المتينة وانماء شعورها وفكرها وارادتها

الفصل الثاني

حالة المرأة الاجتماعية في الماضي

قلنا ان طبائع المرأة نتيجة عاملين : حالتها الاجتماعية في الماضي ، وتكوينها الجسماني . وسندرس العامل الاول في هذا الفصل

تقلب حالة المرأة

ليس غرضنا ان نصف حالة المرأة وتقدمها المطرد منذ أقدم الازمنة الى هذا اليوم — تفصيلاً بل ولا اجمالاً . لاني أرى هذا المسعى عديم الفائدة فضلاً عن انه متعذر التحقيق. وذلك لسبب جوهري وهو اني كلما تقدمت في الحياة ضعف اعتقادي بارتقاء عام متواصل، ولا سيما فيما يخص البشر . فالارتقاء — حسب قول ليبنتز — لا بد ان يتخلله هبوط وتردد

لنأخذ مصر مثلاً : نستدل على حالة المرأة المصرية القديمة مما جاء في مؤلفات الاقدمين التي وصلتنا ومن الآثار والرسوم الكثيرة التي استكشفت حديثاً . فانه يؤخذ منها جميعاً ان المرأة كانت رفيعة الشأن . وشتان بين حالتها في ذلك الزمن وحالتها اليوم : فقد كانت تشتغل في مهام المنزل وتصنع المنسوجات وتشارك الرجل في لذاته فتجلس بجانبه في الولائم والاحتفالات الدينية . واذا كانت شابة تزينت بالحلي والازهار وأبهجت المجتمعات بجمالها وغنائها واذا كانت هرمة نالت — كالاب — اكرام أولادها وتبجيلهم . فكنت أينما ذهبت تجد المرأة في مستوى الرجل ، ويظهر ايضاً انه كان لها وظائف كهنوتية خاصة بها . فبعد هذا الوصف لا نتردد في قولنا ان مكانة المرأة المصرية في هذا العصر دونها في تلك العصور . ومن ذلك نرى انه يتعذر علينا التسليم بارتقاء شامل مستديم .

على انه سواء كان ثمت ارتقاء أو لم يكن فلا غنى لنا عن درس حالة المرأة في الازمنة السالفة وفي المدنيات الغابرة لنستجلي ما كان من تأثير تلك الحالة في خلقها على وجه الاجمال

قياس الرقي

من هذا الدرس يتبين لنا انه كلما تقدمت جماعة في ميدان الحضارة زاد التخصص في الاعمال بين رجالها ونسائها . وأقل ما يكون هذا التخصص في أحط الجماعات

البشرية . ففي القبائل المتوحشة تكاد الاعمال تكون مختلطة بين الجنسين : فترى المرأة تتصيد مع الرجل وتحارب مثله وتعاني ما يعانيه من المشاق والاهوال . ويرجح ان القبائل البشرية في أول عهدها عاشت جميعاً على هذه الصورة ، ثم تميز بعضها بالتدريج من ذلك الخواء الاجتماعي وتقدم في سبيل العمران ، في حين ان البعض الآخر ظل على تلك الحالة المختلطة

ولعل الزواج ـ حتى في أحط صوره وأبهمها كدوري تعدد الازواج وتعدد الزوجات ـ كان بدء التميز في ذلك الخواء . ثم ان هذا التميز لم يلبث ان ازداد وضوحاً فتقسمت الاعمال شيئاً فشيئاً وتخصص الجنسان في أعمالها ولا سيا بعد استقرار الزواج على أرقى صوره ـ نعني زواج رجل واحد بامرأة واحدة . فقد ثبّت المرأة في وظيفتها المنزلية وأقرها على ادارة مملكتها البيتية ، في حين أتاح للرجل ان يعمل في الخارج للارتزاق بالغزو أو الصيد أو الزرع أو غير ذلك من الاعمال الرجلية التي تميزت تدريجاً عن أعمال النساء

بل ان هذا القياس ـ قياس التمدن بدرجة التخصص ـ يصح اعتماده أيضاً للمقارنة بين الدول الحديثة . فاننا اذا نظرنا الى الامم الاوربية الحاضرة ، أو الى أهل مقاطعات مختلفة في الامة الواحدة ، وجدنا ان أرقاها في الحضارة والمدنية أبعدها في تميز الجنسين الواحد عن الآخر واكثرها تقسيما للوظائف والاعمال بينهما . والعكس بالعكس . ففي المدن الغربية الكبرى حيث يبلغ الرقي أعلى درجاته تجد التخصص والتفارق في أتم صورها . اما في المزارع والحقول فالحال بخلاف ذلك اذ تجد أوجه الشبه كثيرة بين الرجل والمرأة في الاعمال والعادات والاخلاق بل وفي المظهر الجسدي ايضاً

الا اننا نرى احياناً في ارقى الجماعات البشرية ، في اقصى ما بلغه الترفه والتمدن ، نوعاً من المعيشة تكاد تمحى فيه الفروق بين الجنسين . اذ تشترك النساء في مهام الرجال وملاهيهم ، كما ان هؤلاء يشاركون أولئك في تخنثهن ورخائهن . فتلك المعيشة المخالفة لسنة الطبيعة ليست الا نذيراً بالتقهقر والانحلال الاجتماعي

على أن اختلاف الاعمال لا يدل على الارتقاء الا إذا رافقه تساوٍ في المقام ، بحيث لا يكون احد الفريقين مستعبداً للآخر ، بل يتعاونان كلٌ حسب قدرته في الغاية المشتركة بينهما ، وهي سعادتهما وتربية اولادهما . ولاريب في اننا اذا درسنا حالة المرأة بانصاف

حكمنا بان الرجل ما برح يعـــدها وسيلة لا غاية بحد ذاتها، مما حمل المرأة على التخلق باخلاق خاصة تطلّبها الرجل . فاضيفت بذلك فروق جديدة الى الفروق الناشئة عن تقسيم العمل بين الجنسين . ويكفي أن نلقي نظرة اجمالية الى حالة المرأة في الماضي لنتيقن من صحة ذلك

الاستشهاد بالقوانين

وينبغي لنا ان نمـــيز جيداً بين العادة والقانون : فان العادة تتقدم القانون . ونعني بذلك أن القوانين ليست في الغالب الا تقريراً للعادات المصطلح عليها ـ وان لطفتها وهذبتهـــا في بعض الاحيان . ولما كنا لا نعرف الا القليل عن العادات المألوفة عند الاقدمين (وذلك القليل لا نكاد نعرفه الا بواسطة آثارهم الادبية) فسنعتمد على القوانين المدونة في درس حالة المرأة ، ولاسيما ان العادات كثيراً ما كانت تتغير بين عصر وعصر بل بين طبقة وطبقة . أما القوانين فمعلومة ثابتة يستطيع الانسان أن يدرسها مباشرة . فتلك خير الطرق في نظرنا لمعرفة حالة المرأة في الازمنة السالفة وعند الشعوب المختلفة بشيء من الدقة والضبط

على انه خليق بنا قبل ذلك ان نشير الى ان المرأة ـ حتى في احط الجماعات البشرية ـ تحرك في الرجل بجمالها وجاذبها عاطفة « الحب » ، وهي اسمى عاطفة لديه كما انها في الغالب مصدر معظم عواطفه الطيبة . مما يحمله ـ حالما يجوز دور الحيوانية الصرفة ـ على معاملتها بشيء من الرفق والحنان . وهو ما حدث في جميع الازمنة والامكنة ، ولو بصفة وقتية عرضية

الهند

ان حضارة الهند القديمة كانت على الارجح منبت الحضارتين اليونانية والرومانية . ولا ريب في انها قد طبعتهما بطابعها في شأن المرأة كما طبعتهما به في سائر الشؤون . فانك تجد في شريعة مانو بنداً يتلخص فيه نظر الاقـدمين الى المرأة وهو : « المرأة تابعة لوالدها في طفولتها ، ولزوجها في شبابها ، فاذا مات زوجها تبعت ابناءها ، واذا لم يكن لها ابنـاء تبعت اقارب زوجها ، لانه يجب ألا تترك المرأة لنفسها في حال من الاحوال »

اليونان

هذه حالة المرأة اليونانية ايضاً . فقد كانت بمنزلة القاصرة طول حياتها لا تملك امر نفسها ولا تستطيع ان تتصرف في شؤونها . فلم يكن لها بد من سيد يعنى بأمرها : وهو إما والدها اذا كانت فتاة ، او زوجها اذا تزوجت ، او ابنها او اقارب زوجها اذا ترملت . وقدكان للزواج عندهم غرض واحد وهو حفظ الاسرة . فلم يكن لذلك بين الزوجين رابطة معنوية الا بالقدر الذي كان يشاؤه الرجل ، كأن هذا الامر موقوف على ارادته وحده

فاذا كان الرجل طيباً رقيق الشعور احب امرأته واكرمها وعاملها باللين ، بل قد تتغلب عليه في بعض الاحوال وتتحكم به متى كان ضعيفاً . فذلك انما يقف على الامزجة والعادات . وعلى هذا يجوز لنا ان نسلم بصحة المشاهد العائلية الصالحة المرسومة على بعض القوارير اليونانية القديمة ، وان نصدق وصف كزينوفون الكاتب اليوناني للحياة البيتية الهنيئة في عصره . ولكن ذلك كله ليس مدعماً باوامر الشريعة اليونانية ونواهيها . والحقيقة ان المرأة لم تكن عند سواد اليونانيين الا بمنزلة «أم الاولاد» فقط ، اوكالناظرة الامينة على الدار وما فيها . ولم تكن المسافة كبيرة بينها وبين عبيد زوجها . فانها لم تتزوجه مختارة بل زوجوها من غير استشارتها . واذا لم تلد له اولاداً او لم ترق في عينيه طلقها بسهولة في حين انها لا تستطيع تطليقه الا باقتحام الصعاب ــ على فرض انها تجرأت وطلبت ذلك . وللرجل ايضاً ــ وهو في قيد الحياة ــ ان يهدي امرأته بموجب وصيته الى اي صديق يختاره ، ولابد لها من تسليم نفسها متى حكم عليها بذلك . ثم ان المرأة لا تستطيع ان تبيع لحسابها او تشتري بقيمة تزيد على خمسين ليتر شعير ، فضلاً عن انها لا تستطيع القيام باي عمل شرعي . ولا عبرة بقول تميستوكل المأثور : « ان ولدي اقدر اليونانيين : فاني احكم على اليونانيين ، وامه تحكم عليَّ ، وهو يحكم على أمه»

والجملة انه لم يكن للمرأة سلطة الا بقدر ما كان يسمح الرجل . هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها . وقد حدث ان الرجل كثيراً ما منح معشوقته (غير الشرعية) ــ التي كان لها من طلاوة تربيتها وبراعتها في الحديث واستقلالها بعاداتها ما يجذبه ويأسره ــ اكثر مما منح امرأته الشرعية المنزوية في بيتها مع خادماتها ، وهي تكاد تشبههن في جهلها وقلة صقلها . فكأن المرأة كانت على وجه الاجمال احدى اثنتين : خادمة او خليلة

على ان ذلك التمييز لم يجاوز قط حداً معلوماً. فقد كانت المرأة في نظر الجميع ـ وفي مقدمتهم الفلاسفة ـ مخلوقاً ناقصاً ليس له من الفضائل الا ما كان من قبيل الطاعة والخضوع. وهذا هو رأي ارسطو الصريح فقد قال: « ليست حكمة الرجل كحكمة المرأة . . . فان الطبيعة عينت الحالة الخاصة بالمرأة وبالرقيق » . وكيفما قلبنا المسألة وجدنا ان هوة عميقة كانت تفصل الجنسين . ومن السهل بعد ذلك ان ندرك السبب الذي كان اليونانيون من اجله يغتبطون لدى ولادة الذكر فيبشرون الاصدقاء باكاليل من ورق الزيتون يعلقونه على باب المنزل

رومة

اما في رومة فقد قال كاتون الروماني جملة (اوردها تيت ليف) تلخص لنا رأي الرومانيين في هذا الموضوع وهي قوله : « Nunquam exuitur servitus muliebris » اي ان نير المرأة لا يخلع .

ففي رومة كما في اثينا ـ بل اكثر ـ كانت المرأة تحت الوصاية من المهد الى اللحد . وللتعبير عن حالتها هذه كانوا يقولون انها « in manu » اي في اليد . فقد كانت طول حياتها تحت سلطة سيد : وهو اما الاب او الزوج او الابن او قريب الزوج . ولم يكن الرومانيون مع خشونتهم وقسوتهم ليخففوا من صرامة القانون بهذا الشأن . فاذا اصاب المرأة عندهم شيء من الاحترام فما ذلك الا لكونها ام الاولاد وخفيرة الاماكن المقدسة في المنزل. اذ لم يكن الزواج الا وسيلة لاستمرار العائلة وعبادة الاسلاف . وقد كان للرجل ان يقتل امرأته بيده اذا ارتاب في سلوكها كما كان له ايضاً ألا يعترف بأولادها

ولكن المرأة الرومانية التي كانت بمقام الرقيق لم تلبث ان اعتقت لما استرخى سيدها . بل لقد بلغ الرخاء والفسق بين الرومانيين مبلغاً هائلاً حتى اصبح ساسة رومة ولا همّ لهم الا ملافاة ذلك . على انه ليس ابلغ من تلك الحالة نفسها للدلالة على الجحيم الذي تهبط اليه المرأة ـ ان لم تدرب على احترام نفسها وتحمّل تبعة اعمالها ـ حالما تفك الاغلال التي تأسرها . فليس الاستقلال المنشود اباحة الفسق والانغماس في المفاسد وانما يتأتى عن طريق الكرامة والاحترام المتبادل

ولا يخفى ما كان للقانون الروماني من الاثر العظيم في مدنية الغرب فقد اتخذته معظم الدول الاوربية ولاسيا اللاتينية منها اساساً لنظامها الاجتماعي . ولا تزال آثاره بادية في حكم الزواج المعروف عند الغربيين فانه مستمد في الغالب من القانون الروماني

النصرانية

كان للنصرانية يد في رفع شأن المرأة وتخفيف الحيف الواقع عليها ـ ان لم يكن من طريق المباشرة فمن قبيل التهيئة . على ان النصرانية قد ترددت احياناً في اعترافها للمرأة بالمقام الجدير بها . فانها شديدة الارتباط بالديانة اليهودية من جهة وبالحضارة الرومانية من جهة اخرى : وقد رأينا مكانة المرأة في رومة ، وانها لم تكن بأفضل منها عند اليهود الذين عدوا المرأة دون الرجل بمراحل . ولا يخفى ان مجمع ما كون في القرن الخامس للميلاد بحث في هل للمرأة نفس كالرجل ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالايجاب الا فيما يخص مريم العذراء والدة الله . ثم ان آباء الكنيسة وقديسيها كثيراً ما اهانوا المرأة لكونها تجربة للرجل ومجلبة للخطية . ناهيك بانه ليس للزواج في نظر الكنيسة ـ وبالزواج وحده تتم المرأة غايتها من الحياة ـ ذلك الشأن الذي يستحقه ـ وان يكن معدوداً من الاسرار الكنسية ـ فان العزوبة عندها أفضل من الامومة

كل ذلك ليس من مصلحة المرأة في شيء . وانما قلنا ان النصرانية ساعدت على رفع شأنها بمعنى انها أذلت الرجل وحطت من كبريائه وجعلته نظير المرأة وعدته موصوماً مثلها بالخطيئة الاصلية لا خلاص له الا بالتوبة . ثم ان الزواج الكنسي لا يحل ، والامانة من واجب الزوجين على السواء . وبعبارة أخرى انهما يتساويان بازاء الواجب وشروط الخلاص .

فرنسا والامم الغربية (١)

اما الغاليون (وهم سكان فرنسا الاصليون) فقد كانت المرأة عندهم وضيعة ذليلة .

(١) لم يذكر الكاتب شيئاً عن المرأة العربية . على أن حالتها لم تفضل حالة شقيقاتها ولاسيا بعد تعميم الحجاب . قال جرجي زيدان : «كانت المرأة العربية في اوائل

فالى الرجل كان يرجع امر حياتها او موتها ، كما انه كان له ايضاً حق تطليقها متى شاء . على ان حالتها تحسنت بالتدريج . فلما رحل قيصر القائد الروماني الى تلك البلاد كانت العروس تجلب معها « دوطة » فيضيف الرجل اليها مبلغاً معادلاً لها . وفي ذلك ضرب من المساواة بين الفريقين ــ ولو في الظاهر

كذلك كان الامر عند الفرنك وغيرهم من الاقوام الذين نزحوا الى فرنسا . فان المرأة في اول عهدهم كانت تشرى كما يشرى المتاع . ولكن ما لبثت تلك العادة ان اضمحلت . حتى انه في زمن تاسيت المؤرخ الروماني لم يبق لها الا اثر ضئيل في تبادل الهدايا بين العروسين كأن في ذلك رمزاً عن المساواة . ولعل الهدايا المألوفة في الافراح اليوم من بقايا تلك العادة . والجملة ان المرأة الفرنكية لم تكن ملكاً لزوجها يتصرف بها كيف شاء ، بل كانت شريكته لها املاكها الخاصة ولها ايضاً ان ترث اقرباءها بل ان ترثه هو اذا توفي قبلها ، كما انها في العصور الاولى كانت شريكته في الغزو والحرب

من تلك العوامل جميعاً ومن مقتضيات الاحوال نشأت المدنية الفرنسية في القرون الوسطى . ولا يخفى ان النظام السائد في ذلك الزمن كان نظام الاقطاعات féodalité وهو انما يقوم على تأدية الخدمة العسكرية . فكان مفروضاً على كل اقطاعة تجهيز عدد معين من الجنود . ولذا لم يبح للنساء امتلاك الاقطاعات في اول الامر . زد على ذلك انه كان للاولاد الذكور امتياز على البنات في امر الوراثة كما انه كان للبكر امتياز على اخوته ، بحيث كان امتلاك الاقطاعة ينتقل في الذكور فقط من البكر الى البكر . ولئن اشتهر ذلك العصر

الاسلام مثال الانفة واستقلال الفكر وقوة العقل والنفس في حين كانت المرأة الغربية في غياهب الجهل والذل . فلما استبحر عمران المسلمين واشتد الحجر على المرأة في اثناء الاجيال الاسلامية الوسطى انحطت أخلاقها حتى صارت الى مايشبه المروي عنها في الف ليلة وليلة . فان هذه القصة الخيالية مع ان فيها مبالغات كثيرة تمثل الآداب الاجتماعية في تلك العصور المظلمة وتدل على سوء ظن الرجل في المرأة أو سوء الظن المتبادل بينهما ، وتدل دلالة صريحة على أن الحجاب لا يمنع وقوع الفساد والخيانة » (الهلال سنة ٢٢ صفحة ١٧٤)

بصفات الفروسية وبما كان المرأة فيه من الاجلال والاكرام في المجالس والاحتفالات العمومية فان ذلك كله لم يكن الا غشاء ظاهرياً . وليس ادل على حقيقة حالها من نصوص القوانين وصرامتها فيما يخصها . وقد شبه احد كتاب ذلك العصر نساء ايامه المبجلات المعظمات « بالهيا كل المصرية الفخمة من الخارج بينا لا تجد في داخلها الا قرداً او هرة او جدياً »

على ان العادات لطفت تلك الصرامة شيئاً فشيئاً الى زمن الثورة الفرنسية التي اعلنت المساواة بين الجنسين في المسائل المدنية (ابريل سنة ١٧٩١) ومنها نشأت المساواة الوراثية بالغاء امتيازي البكورة والذكورة . فمن ذلك الحين اصبح لدى المرأة ما يضمن لها كرامتها واستقلالها : فاذا لم تتزوج استطاعت ان تتصرف بمالها كما تشاء . اما اذا تزوجت فانها تضطر الى التخلي لزوجها عن شيء من سلطتها . ولكنها مع ذلك لا تتزوج الا برضاها . ثم ان نظام « الدوطة » يجعل شيئاً من المساواة بين الزوجين

والجملة ان سلطة الزوج تغيرت تغيراً اساسياً . فبعد ان كان مؤداها محو شأن المرأة لعدها قاصرة اصبحت ترمي الى حمايتها وحماية الاسرة والاولاد مما قد تنقاد اليه بقلة اختبارها

على انه لا يزال للعزبة امتيازات على المتزوجة ، كأن الزواج يقلل من شأن المرأة ونفوذها بوضعها تحت حماية الرجل . ولعل هذا ضروري لسلامة العائلة التي هي جرثومة الاجتماع كما لا يخفى . ومع ذلك فلا يزال مجال الاصلاح واسعاً في هذا الموضوع

تأثر خلق المرأة من حالتها الماضية

بقي علينا الآن ان نستخلص من هذه النظرة الشاملة ما كان من تطور خلق المرأة وفقاً لمقتضيات احوالها :

قد كان لماضي المرأة بلا ريب اثر عظيم في نفسها . اذ حملها على التخلق باخلاق اقتضتها حالتها ، غير ما غرسته فيها الطبيعة من المواهب الفطرية . وقد تثبتت فيها تلك الاخلاق المكتسبة مع توالي الاجيال . ومما زادها ـ ويزيدها ـ وضوحاً : التربية و « الانتخاب الجنسي » . فبالتربية تدرب الفتاة على السجايا المرغوبة فيها فتقوى

تلك السجايا بالتمرين ، وبالانتخاب الجنسي تنمو فيها الصفات التي تروق للرجل (اذ انه لا يتزوج الا من اتصفت بها فتتوارث تلك الصفات من جيل الى جيل وتبرز شيئاً فشيئاً ، في حين أن الصفات المكروهة تضعف وتتلاشى لاجتناب الرجل كل امرأة متصفة بها . وهذا هو المراد من قولنا « الانتخاب الجنسي »)

فما هي اذاً الصفات والسجايا التي اكتسبتها المرأة من ماضيها ؟ أما من الوجهة الجسمانية فقد اكتسبت ضعف العضلات والجسم عموماً ، وهو نتيجة معيشتها الهادئة بالنسبة الى معيشة الرجل . وأما من الوجهة المعنوية فالصفات التي برزت فيها هي : الميل الى الحياة البيتية ، والعناية بمهام المنزل ، والحياء والخوف ، والجلد والصبر ، والاهتمام بالجزئيات والامور الدقيقة ، والسعي الى اجتذاب الرجل وارضائه لان عليه يقف كل شيء ، والطاعة واللين ازاء رب الدار وصاحب القوة والسلطان (وذلك يجعلها تخشن الكلام مع من دونها من الخدم كأنها بذلك تثأر لنفسها) ، ومهارة غريبة في حزر رغبته كي تسبقه الى انجازها ، وحذق في تضليله وخدعه اذا كان قاسياً (أو على الاقل في اخفاء عواطفها اذا اضطرت الى ذلك) — تلك بعض الصفات التي نمت في خلق المرأة لانها كانت لازمة لها حتى تعيش مع الرجل وتحوز رضاه

وكيف نتوقع من المرأة المنزوية في دارها ان تكون لها نفس القدرة العقلية التي نالها الرجل من جراء احتكاكه بالعالم واهتمامه بالمسائل الخطيرة العمومية والخصوصية ؟ فانها ما برحت تعامل اما بالازدراء أو بالتمليق ، وكلاهما مضر على السواء . وقد نجم عن ذلك انها عاشت في عزلة وجهل ، او اكتفت بانماء مواهب سطحية تبهر أكثر مما تفيد . والرجال غالباً يكرهون النساء العالمات صاحبات الخلق القوي والعقل الراجح

بل كيف لا تكون المرأة نعجة طيّعة عادمة الاستقلال والذاتية المعنوية مع ما تحملته من ضغط الرأي العام اجيالاً طويلة — ذلك الرأي الجائر الذي يبيح للرجل كل شيء ويأبى الا أن يؤاخذها بادنى هفوة ، ذلك الرأي الذي يصفق للغاوي ولا يلوم الا الضحية ؟ وهل مما يدعو الى الدهشة من تطرفها في الشر كلما جاوزت حدود اللياقة ، ما زال رادعها الوحيد « ما يقوله عنها الناس » لا عقلها وشرفها وكرامتها ؟

لنكتفِ الآن بهذه الاشارة . ولعل لنا في ذلك ما يجعلنا اقرب الى الانصاف بازاء المرأة فنستطيع أن نلتمس لها اعذاراً صحيحة ولا نكون ظالمين . بل اني – فيما يخصني – أرى المرأة بعد هذه النظرة التاريخية اجدر بالاجلال والاكرام . فلو خبر الرجال مثلما خبرته النساء من الحيف والجور ما استطاعوا أن يخلصوا بانفسهم على افضل من تلك الصورة ! ولله در غريم القائل : « لو فكرنا في كل ذلك بانصاف ما قلنا شراً عن المرأة بل ملنا الى الاعتقاد بان فطرتها تسمو على فطرة الرجل »

وعلى كل حال لا بد لنا من التسليم بان في المرأة قوى كامنة تؤهلها لتحسين حالها متى أتيح لها ذلك . وليس من العدل ان نشدد الحكم عليها بعد ما نالها من الظلم والاهمال على مر الاجيال

الفصل الثالث

حالة المرأة الجسمانية ووظيفتها الحيوية

وما لذلك من الشأن في حياتها الاجتماعية

قد وصفنا بالمجاز حالة المرأة في العصور السالفة وما كان لذلك من التأثير الشديد في خلقها . الا ان هـذا التأثير مع شدته قابل للتعديل لان ما يحدثه الزمن قد يمحوه الزمن أيضاً .

الفرق الاساسي بين الجنسين

على ان تلك الحالة نفسها ـ أي حالة المرأة في الماضي وما كان من خضوعها للرجل وتخلفها عنه في الرقي ـ كل ذلك انما تأتى عن طبيعة المرأة ، أي عن تكوينها الجسماني ووظيفتها الحيوية . وقد ذكرنا سالفاً قول مودسلي ان انوثة المرأة أشد تأثيراً من تربيتها في نفسها وحياتها . فتلك الانوثة ـ أي كون المرأة امرأة ـ هي العامل الاصلي الاساسي الذي ينبغي لنا درسه الآن

فلا ريب في ان أنوثة المرأة تلجئها الى الخضوع للرجل لما يترتب عليها من الاحوال التي تضطرها الى الاستعانة به والاعتماد عليه ـ مع انها بذلك تؤدي أسمى الوظائف الاجتماعية

وليس ذا شأن في بحثنا أن نقف على طبائع الحيوانات للمقارنة بينها وبين الانسان . واني لأرى من العبث ما تبذله بعض النساء المستنيرات من الجهد لاثبات مساواة الانثى بالذكر في عالم الحيوان بل اثبات تفوقها عليه في بعض الانواع ولا سيما الخيل والكلاب . فمثل هذا البحث لا يجدي نفعاً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحيوانات الداجنة التي لم تربَّ تربية طبيعية . بل أن تخلف الانثى غالبٌ بين الحيوانات الوحشية . وعلى فرض اننا اثبتنا تفوق الانثى بينها فذلك لا يحتم تفوق المرأة في الجنس البشري . فانها تمتاز عن سائر الاناثيات بثقل العبء الذي فرضته الطبيعة عليها . فطفلها بلا ريب اضعف من اطفال جميع الحيوانات واحوج منها الى عناية أمه ورعايتها المستديمة

الفروق التشريحية

أما ما بين الرجل والمرأة من الفروق التشريحية فلم يتفق العلماء بشأنه بعد. فمعظم الفروق المثبتة لا يترتب عليها حكم ذو شأن في حين أن الفروق المشكوك في صحتها يترتب عليها احكام خطيرة لو اثبتت. وقد سلم الباحثون الحديثون للمرأة باكثر مما سلم لها المتقدمون منهم. على أنهم متفقون جميعاً في أن المرأة انقص تكويناً من الرجل واقل جلداً واضعف مقاومة. هذه هي الصفة العامة التي تنطبق على كل أجهزتها واعضائها. واليك تفصيل ذلك:

ان قامة المرأة في جميع الاجناس البشرية اقصر من قامة الرجل وذلك منذ المهد. فالذكر يولد اكبر من الانثى ومعدل الفرق بين قامة الرجل وقامة المرأة عند اكتمال نموهما نحو ١٠ سنتيمترات

ويقال مثل ذلك فيما يخص الوزن. فالفرق بين الجنسين يتجلى منذ الولادة. ومعدل تفوق الرجل من هذا القبيل ٥ كيلوغرامات. وفرق الوزن يظهر خصوصاً في الهيكل العظمي فهيكل المرأة أخف وزناً من هيكل الرجل — ليس على وجه الاطلاق فقط بل بالنسبة الى وزن الجسم ايضاً. ثم ان العظام — علاوة على كونها في المرأة اصغر حجماً وأقل متانة (حتى من حيث تركيبها الكيماوي) — فان انوفها التي ترتكز عليها العضلات أقل نمواً وبروزاً. زد على ذلك أن تركيب هيكلها (نظراً لشكل الحيض على الخصوص) يجعلها اقل قدرة على الحركة والانتقال

أما عضلاتها فاضعف من عضلات الرجل. وهي دونها في الحجم بنحو الثلث كما انها دونها ايضاً في النشاط. وهو ما يجعل المرأة أخف من الرجل ويجعل حركاتها ابطأ من حركاته واقل ضبطاً ولباقة. وانما تفضل المرأة الرجل في نسيج واحد وهو النسيج الخلوي الذي تقف عليه استدارة شكلها ورشاقة جسمها. ومن الوهم الاعتقاد بان قدم المرأة التي يتغنى بجمالها اهل هذه المدنية ارقى من قدم الرجل. بل ان الحقيقة عكس ذلك لان قدمها بوجه الاجمال اكثر تسطحاً واقل التواء، وبعبارة اخرى انها اشبه بقدم الشعوب المنحطة

واذا انتقلنا الى الاحشاء وجدنا قلب المرأة اصغر حجماً من قلب الرجل واخف وزناً (٢٤٠ غراماً للمرأة و٣٠٠ للرجل) « وهو ما يدل على ان حجم هذا العضو ليس بنسبة

ما يسعه من العواطف ! » كما قال احدهم . أما النبضات فانها اسرع في المرأة ويزيد عددها فيها عن عدد نبضات الرجل بما يتراوح بين ١٠ نبضات و١٤ نبضة في الدقيقة (والحال كذلك ايضاً عند معظم الحيوانات : فنبضات الاسد ٦٠ واللبوءة ٦٨ ، والثور ٤٦ والعجلة ٦٦ ، والكبش ٦٣ والشاة ٨٠) . أما دم المرأة فيختلف عن دم الرجل في قدره اولاً فانه أقل منه قدراً ، كما يختلف عنه في التركيب ايضاً فالاملاح فيه انقص وكذلك الهيموغلوبين . ثم ان كريات الدم الحمراء اوفر في المرأة بعكس كريات الدم البيضاء فانها اوفر في الرجل

ولننتقل الآن الى الجهاز التنفسي : ان المرأة متخلفة عن الرجل في سعة الصدر والرئتين (الفرق بينهما نحو نصف ليتر) . ثم ان التنفس لديها أسرع ولكنه أنقص من الوجهة الكيماوية فالرجل اكثر امتصاصاً للاكسيجين واطلاقاً للحمض الكربوني . ولذلك نجد المرأة دون الرجل في درجة الحرارة . ولعلها كذلك لانها أقل منه استنفاداً لها بسبب غلافها الدهني الذي يحفظ الحرارة من الافلات والضياع . أما جهازها الهضمي فاقل احتياجاً للطعام وان يكن احساس الجوع عندها اكثر تواتراً

وما عسانا ان نقول الآن عن الرأس والدماغ ؟ لا ريب في ان جمجمة المرأة أصغر حجماً من جمجمة الرجل . وذلك الفرق يزيد كلما ارتقى الانسان في سلم الحضارة . فرأس الرجل ينمو مع تقدم المدنية في حين ان رأس المرأة لا يكاد يتأثر من ذلك . قال غوستاف لوبون : « قلما يزيد حجم الجمجمة في نسائنا المتحضرات عن حجمها في نساء العصور السابقة للدور التاريخي » . ونسبة جمجمة المرأة الى جمجمة الرجل في الحجم كنسبة ٨٥ الى ١٠٠ . ويتبع حجم الجمجمة عادة حجم المخ فانه أصغر في المرأة وأخف وزناً (يتراوح وزن الجمجمة بين ١١٠٠ و١٣٠٠ غرام في المرأة وبين ١٢٠٠ و١٤٠٠ في الرجل) . على انه ينبغي اعتبار الوزن النسبي أي وزن المخ بالنسبة الى الجسم كله لا وزنه على الاطلاق . فبهذا الاعتبار قد اختلف حكم الباحثين الا ان الرأي الغالب بينهم هو ان المرأة دون الرجل في هذا الباب أيضاً اذ ان مخها يعادل $\frac{1}{44}$ من وزنها في حين ان مخه لا يزيد على $\frac{1}{40}$ من وزنه . وهنالك فرق كذلك في شكل المخ وتلافيفه (ولا يخفى ان تلافيف الدماغ هي مراكز القوى العقلية) فتلافيف المرأة على ما يقولون أضعف نمواً وأقل بروزاً

تلك هي الآراء الغالبة بين العلماء وليس هذا مقام مناقشتهم في صحتها . بل ان هذه النتائج متوقعة على الاجمال ولا داعي لاستهجانها . فان ضعف التركيب الجسماني في المرأة وتخلفها عن الرجل في الوزن ووفرة الدم وحركة التنفس بل في نمو الدماغ أيضاً ـ كل ذلك ليس على الارجح الا نتيجة معيشتها في القرون السالفة وما تحملته من الضغط وما نالها من الحيف والانزواء . فهل من العجب ان تتخلف المرأة في القدرة على الكد والعمل في حين ان قواها ما برحت هامدة ساكنة منذ أجيال بعيدة ؟ فبالاهمال تضمر الاعضاء وتنقص في الحجم والوزن والنشاط . تلك سنة راهنة تسري على عالم الحياة باسره . ولعلها كافية لتعليل الفروق المتقدم ذكرها . ولذلك يجب عد هذه الفروق « ثانوية » : فانها ثانوية في الاهمية كما انها ثانوية أيضاً في كونها ناشئة عن فرق أولي عظيم الشأن .

وظيفة الانوثة واخطارها

وانا ذاكرون الآن كلمة عن ذلك الفرق الاساسي الذي هو مرجع سائر الفروق بين الجنسين . وهو يتجلى في قولنا ان المرأة انما هي . . . المرأة — أي انها مكونة تكويناً خاصاً لتأدية وظيفة الامومة التي هي كنه حياتها . فمن صفاتها التشريحية والفسيولوجية والنفسانية القائمة على هذه الوظيفة أو المرتبطة بها تتكون طبيعتها الخاصة التي تميزها عن الرجل . تلك هي الحقيقة الاساسية التي تسهل علينا مهمة درس هذا الموضوع من أوله الى آخره . فان تخلف المرأة قائم على ذلك ، كما يقوم عليه أيضاً ما لها من مجد ومفخرة . اذ كيف لا نذكر بوقار تلك التي أتيح لها ان تكون أماً ؟ وكيف نشك في وجوب مساواتها بالرجل ؟ بل أي شيء من الوجهة الاجتماعية أهم من بقاء العائلة والامة والجنس ؟

على ان تلك الامومة هي بلا ريب عبء ثقيل على المرأة يعوق جهادها في هذه الدنيا . فلا غنى لها اذاً عن مساعدة الرجل وحمايته . ولكن بعض النساء يبالغن في متاعب الحمل والامومة معتمدات على ذلك في حض الرجل على الالتفات اليهن والعناية بامرهن . فاولئك ينبغي تنبيههن الى ان تلك الوظيفة طبيعية اعتيادية وانها تؤدى على أهون الصور متى كانت المرأة صحيحة وبيئتها سليمة . ولا ريب في ان المغالاة ظاهرة

في وصف ميشله للمرأة بانها مريضة منذ سن البلوغ ، وفي عد الدكتور سيكاد لضروب الاختلال العقلي والجسدي كأنها ملازمة بطبيعتها لصفة الانوثة . على انه يجوز التسليم مع هذا الاخير في قوله ان حالة المرأة العقلية عند اختلال وظيفتها الحيوية تتراوح « من الاضطراب البسيط الى درجة الجنون ، مما يدعو الى تخفيف مسؤوليتها بل الى أخلائها من المسؤولية في بعض الاحيان »

ان في حياة المرأة — وعلى الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢ و ١٤) وفي العارض النهائي (حوالي سن ٤٥) — سلسلة اخطار تجعلها عرضة للعطب والضعف . على اننا نكرر قولنا ان تلك العوارض — التي ضخمتها الحياة الوخيمة في المدن الكبيرة — تنقضي بسهولة في الحياة الصحية المنتظمة وفي الاحوال الملائمة من الوجهتين الجسدية والعقلية . وكثيراً ما تبدي المرأة على تفاوت سنها من النشاط والصبر والجلد ما يستدعي الدهشة والاستهجان . ثم انها متى جاوزت دور الاخطار الخاصة بجنسها تجاري الرجل في الصحة والتعمير . على ان ذلك لا ينافي قولنا أن المرأة في اجمل دور من حياتها — حتى اقوى النساء وارزنهن عقلاً وجسداً — عرضة لمشاق وشدائد تتفاوت في الخطورة . فقد كتب لها أن تعرف ايام تعب وضعف تتكرر في اوقات معلومة وان تكون شديدة التأثر والانفعال من اتفه الاسباب كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والوجس

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبده للاحتفاظ بالجنس . ومن نتائجه الراهنة تعرضها الشديد للمرض والموت في سن الشباب . فانه يؤخذ من الاحصاءات أن تفوق الفتاة في قوة مقاومتها لا تلبث أن تفقده المرأة بعد اكمال نموها وتصبح بخلاف ذلك شديدة التعرض للطوارئ . وقد حسبت احدى الشركات التي تعنى بأمر العيال والعاملات ان المرأة — حتى سن ٤٥ او ٥٠ سنة — اكثر تعرضاً للامراض من الرجل بنحو مرة ونصف مرة ، وان وفيات النساء في هذه المدة ثلاثة اضعاف وفيات الرجال . فلله در هكسلي القائل : « ما دامت الامومة حصة المرأة فانها عبء ثقيل عليها في ذلك السباق الذي يسمى الحياة . فواجب الرجل ان يخفف عنها ذلك العبء او على الاقل ألاّ يضيف اليه اثقالاً اخرى بمعاملته لها حتى لا يزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة »

نتائج الانوثة من الوجهة النفسانية

قد آن لنا الآن ان نخوض المبحث الخطير الذي هو غرض هذا الفصل : فما تأثير تلك المميزات الجسمانية في صفات المرأة واخلاقها ؟

قال سبنسر : « ان الطبيعة تقف نمو المرأة باكراً كي تعدها لوظيفة الامومة ـ كأنها تتيح لها بذلك ان تخزن قوتهـا احتياطاً للأزمات التي تطرأ عليها . فهي تقف نموها عاجلاً ليتيسر لهـا تخزين ما يلزمها من الغذاء والنشاط عند تأديتها وظيفة الامومة »

يؤخذ من ذلك اولاً أن عقل الفتاة ينضج قبل نضوج عقل الفتى . هذه حقيقة لا سبيل الى انكارها فانك اذا قارنت بين فتى وفتاة حوالي الخامسة عشرة من عمرهما وجدت البون شاسعاً بينهما من حيث فهمهما وادراكهما ، وعلى الخصوص في الامور الحسية الراهنة . فانها تفوقه بمراحل في امتلاك نفسها وحسن تخلصها ومعرفة ما ينبغي لها عمله في المواقف الحرجة . ومن ذا الذي لم يتح له الاعجاب بحذق الفتيات من هذا القبيل !

ولكن ذلك التفوق يعد نقصاً من وجه آخر . فما النضوج المبكر الا امتناع للنمو . فان الدماغ وسائر الاعضاء تبقى في المرأة دون ما هي في الرجل . وبعبارة أخرى انما المرأة تستتم نموها قبل الرجل لان ذلك النمو أقصر مدى واقرب غاية . هذه هي الحقيقة الاساسية التي عظمها اعداء المرأة واستندوا عليها للازدراء بها . قال شامفور : « النساء اولاد كبار جعلن للتعامل مع جنوننا لا مع عقلنا » وقال شوبنهور : « لا يبلغ عقل الرجل تمام نموه قبل الثامنة والعشرين . اما عقل المرأة فانه يكتمل نموه في الثامنة عشرة . فكأن عقلها لا يتجاوز قط تلك السن فتراها طول حياتها ولداً كبيراً » . وهناك وصف كاتب روائي لبراعة الفتيات قال : « . . . تأتي الفتيات أشياء عجيبة في اول امرهن ولكنهن يقفن فجأة . . . فلا يتقدمن خطوة بعد ذلك وليس من يدري السبب » . على اننا ندري الآن السبب الحقيقي لهذا الوقوف . فما ذلك الا لانهن يسرعن في التحول نساء . ولم تشأ الطبيعة أن يجارين الرجل في جميع مواهبه كما انها لم تمنحهن ذقوناً

على ان ذلك لا يمنعهن من تحقيق غاية الجنس البشري بطريقتهن التي جعلن لها كما يسعى الرجل للغاية نفسها من وجهته الخاصة . ومن الحماقة عد ما تقدم دليلاً على ان المرأة ليست الا رجلاً ناقص النمو . على اننا ـ وان هزأنا بالمرأة لانها ولد طول حياتها ـ لا بد لنا من التسليم بانها تبقى مع ذلك أحمى من الرجل وأحر قلباً وأشد اندفاعاً وأغزر احساساً . ولعل ذلك ما يعلل قابليتها العظيمة للتأثر والانفعال وهي ميزتها البارزة فيها ـ وان أخفت ذلك متى اقتضته مصلحتها

ان حفظ النوع الذي هو غاية الطبيعة لا يتم بالوظائف والاعضاء المعدة لذلك وحدها ، بل يستدعي أيضاً وجود غرائز خاصة تعين على بلوغ تلك الغاية . فمن هذا القبيل نجد غريزة الأب دون غريزة الام نمواً وبروزاً . فمن طبيعة الرجل الحماية والاجارة بوجه عام . أما المرأة فان عطفها وكنفها وجناحها محصورة على الخصوص في عنايتها بالطفل الضعيف الذي تربطها به روابط وثيقة . أضف الى هذه الغريزة الصفات العقلية المرافقة لها كادراكها بالفطرة احساس الطفل وحزرها لحاجاته . والجملة ان سيطرة الامومة على حياة المرأة تبلغ مبلغاً عظيماً حتى لقد قيل ان المرأة كلما أحبت حباً شديداً مازج ذلك الحب شيء من عواطف الام

ولكن المرأة القادرة بازاء الطفل ضعيفة بازاء الرجل . ولا بد لها من الاحتماء تحت جناحه . وليس من العسير استكشاف سبب ذلك . ففي نزاع البقاء لم يفز من النساء الا من حزن المواهب والصفات التي من شأنها اجتذاب الرجال وحملهم على اعانتهن واجارتهن . ولذلك ما برح همّ المرأة ارضاء الرجل والعناية بما يسره ومنافسة زميلاتها في هذا المضمار . فكل هذه الصفات تعينها على البقاء وتنيلها الحظوة في عيني سيدها

ومن جهة أخرى فان صاحبات الخلق الاستقلالي الحر ـ اللواتي لم يرضخن لسلطة الرجل ولم يتحملن استبداده ـ لم ينجحن في استمالته اليهن ولم يفزن في مضمار الحياة . فكأن الطبيعة تنتخب الصفات التي من شأنها توافق الجنسين فتنمو تلك الصفات وتبرز بالتدريج في حين ان الصفات الآيلة الى خلاف ذلك تتلاشى شيئاً فشيئاً ـ وهو المراد « بالانتخاب الجنسي » الذي هو ضرب من ضروب الانتخاب الطبيعي

ثم ان المرأة ما فتئت تترقب عواطف الرجل لتستطلع ما فيه من رغبة وميل لان على

معرفة ذلك يقف فوزها ونجاحها . فمن الطبيعي اذاً ان تنمو فيها مقدرة التنبؤ برغائبه واميالِه والتفطن لكل ما يسره ويرضيه . فلكم توقفت سعادتها على الاستدلال من حركة أو نغمة أو اشارة على ما يجيش في قلبه من غضب أو قسوة أو عطف أو سماح ! تلك هي ميزتها العجيبة التي تبلغ في المرأة المتحضرة — بالتهذيب والتمرين — دقة فائقة الوصف

ومن الاخلاق الناشئة ايضاً عن حالة المرأة الجسمانية وضعفها الطبيعي تبجيلها للقوة واعجابها بها . على ان نوع القوة الذي تميل اليه يختلف باختلاف وسطها وتربيتها ودرجة حضارتها. ولكن مما لا ريب فيه ان يحلي الرجل بضرب من ضروب القوة الجسدية او المعنوية يبهرها ويستميلها . وليس من العدل تأنيب المرأة على ميلها هذا فقد نشأ فيها واتضح بالتدريج لانه كان شرطاً لازماً لبقائها هي واولادها . وانما يكفي أن يتحول اعجاب المرأة الراقية المتهذبة من الجهة الجسدية الى الجهة المعنوية . ولعلنا نجد في هذه الغريزة ما يعلل لنا قدرة بعض النساء على تحمل المعاملة الرديئة ، بل قد تتعلق المرأة احياناً بالرجل الذي يستبد بها ويسيء التصرف معها وتفضله على الخامل الرخو الذي يلاطفها على الدوام ، ولا سيما اذا كانت شدة الاول ناشئة عن غيرته عليها ولين الاخر نتيجة عدم اكتراثه بها

وقد نسب هربرت سبنسر الى اعجاب المرأة بالقوة نمو شعورها الديني . فما برح هذا الشعور — في كل زمان ومكان — اظهر في المرأة منه في الرجل . على اني اميل الى الاعتقاد بأنه انما ينجم عن دقة احساسها وشدة تأثرها او قل ان شئت عن احتياجها الى الاسعاف من الوجهتين المادية والادبية وتعودها الخوف والتأمل ، في حين لا يتاح لها العمل بنفسها مباشرة . تلك كلمة وجيزة في هذا الموضوع وسنعود اليه بعد . على انها كافية لتبين لنا ان العاطفة الدينية متأصلة في قلب المرأة وليست من ثمار التربية كما يدعي البعض

ومما يترتب على غريزة الطاعة والانصياع الاصيلة في المرأة احترامها للسلطة في جميع ظواهرها وحرصها على كل ما كان قديماً مألوفاً . فالمرأة في الغالب هي حافظة التقاليد البيتية والاجتماعية . ثم انها في المسائل السياسية اكثر ميلاً من الرجل الى الحكومة الشديدة الصارمة . ولا شك في ان هذه المميزات ناشئة عن تبعيتها الطبيعية المتوارثة جيلاً عن جيل . فانها ترضخ طوعاً للسلطة العمومية وقلما تسعى في التنصل من تلك

السلطة . بل كيف تكون حرة النزع في هذا الشأن حالة كونها لا تدرك معنى الحق الصرف والعدل المطلق ، وهي لم تنل نعمة او تجز خيراً في هذا العالم الا بفضل الرجل الذي تجتذبه وتستميله فانما قانون الحياة في نظرها الاعتماد على الحظوة والرعاية لنيل كل مرغوب

نظرة الى المستقبل

لعلنا قد تقدمنا الآن شوطاً بعيداً في درسنا هذا . فقد رأينا الباعث الاساسي الذي جعل المرأة خاضعة للرجل وكيف تطورت اخلاقها من جراء ذلك . ففي الفصل السابق شاهدنا المرأة في حالتها الوضيعة على ممر الاجيال . وفي هذا الفصل احطنا بمنشأ ذلك الحدث الاجتماعي وادركنا سببه الطبيعي الفسيولوجي . فقد تبين لنا الآن لماذا خضعت المرأة للرجل ولماذا ايضاً يتحتم عليها ذلك الخضوع الى حد محدود . والا انقلب النظام البشري رأساً على عقب . بل لو اراد البشر ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة ، في تركيبها وخلقها ومزاجها ، ما يحول دون تنفيذ مرادهم

ان خضوع المرأة أمر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته ، ولكنه طبيعي متى عدله تقسيم العمل ولطفته روح العدل والانصاف . بل ليس في ذلك الخضوع اهانة أو مذلة اذا نشأ عن تفاوت ضروري للتآلف والتوافق وكان اساساً لوحدة العائلة — وهي الجرثومة البدائية في تكوين الجمعية البشرية — كما تتآلف الاعضاء وتتوافق في خدمة الجسم البشري

فاذا اتخذت الحركة النسائية غير هذه الوجهة بدعوى طلب المساواة المطلقة بالرجل فانها انما ترمي بذلك الى ملاشاة العائلة التي هي ركن الاجتماع والتي ليس للمرأة نفسها في خارجها سعادة مستديمة

فعلينا اذاً التسليم بما دبرته الطبيعة مع تجنب ما يثقل حكمها ، بل مع السعي في تعديل ذلك الحكم بقدر المستطاع — وسنرى انه لا يستهان بذلك القدر من التعديل . فمتى عرفنا الحدود التي وضعتها الطبيعة لها استطعنا ان نرسم لتربيتها خطة ترفعها وتثقفها في آن واحد وتضمن لها انماء مواهبها التي أهملت زمناً طويلاً من غير ان ينقص شيء من رونقها وجمالها . ففي الامكان رفعها الى مستوى الرجل في كرامتها وتعقلها بحيث تصبح

أجدر باحترامه من غير ان تكون أقل جدارة بحبه . هذا ما ينبغي لنا عمله متذكرين على الدوام ما في المرأة من ضعف وعيب - لا لتأنيبها وتوبيخها - بل لاصلاح امرها جهد الطاقة . فنعطيها ماينقصها من غير ان نحرمها مما لديها . وينبغي ألاَّ نخشى تقويتها . فالرجل الذي يعمل لذلك انما يعمل لفائدة العائلة والمجموع بل لفائدته هو أيضاً . وانه لمن الجهل وصغر النفس ان يرى في اعلاء شأنها حطة من شأنه ، كما انه من الخطأ والحماقة ان تتناسى هي من جهتها حكم الطبيعة عليها . فلقد جعلت لهـا حصة في الحياة ليست دون حصة الرجل جمالاً وبهاء على شرط ان تكون مختلفة عنها . فالتساوي الممكن بينهما انما يأتي من هذه الجهة . واذا طلبت مساواة أخرى فانها تحرم نفسها تلك المساواة الوحيدة الميسورة لهـا فتذهب ضحية طموحها الى المحال . وكأنها بذلك تقتل الحب في قلب الرجل وهي تطالبه بما تظنه عدلاً

الفصل الرابع

الفتـــــاة

مقابلة بين اخلاق الجنسين قبل سن البلوغ

الغرض من هـذا الـكتاب درس طبائع المرأة في اجلى مظاهرها أي في المدة المتوسطة بين نهاية الطفولة و بداية الشيخوخة ، أو بعبارة أخرى من اول سن البلوغ (حوالي ١٣ و ١٤ سنة) الى آخر عهد الينوع (من ٤٥ الى ٥٠ سنة) . فالفرق بين الرجولة والانوثة انما يكون كامناً قبل هـذه المدة كما انه بعد انقضائها لا يبقى منه غير التذكار

تختلف سن البلوغ باختلاف الشعوب فانها تقع حوالي السنة العاشرة في مصر في حين انها لا تقع في اسوج قبل الثامنة عشرة . وكلما تأخرت تلك السن طال عهد الجمال والاثمار في المرأة . فبينما ذلك العهد لا يستغرق اكثر من عشرين سنة في البلاد الحارة نجد انه يبلغ اكثر من الثلاثين في الاقطار الشمالية . فمن الخطأ اذاً ان نتمنى ابكار البلوغ . بل ينبغي لنا ان نبذل جهدنا لاجتناب كل ما من شأنه تعجيله ـ وان يكن ما نستطيعه في هذا الباب يسيراً

ويجدر بنا الآن أن نقف هنيهة للتأمل في حالة الفتاة قبل سن البلوغ أي قبل ان تبرز فيها صفات المرأة التي نرمي الى درسها في هذا الـكتاب . ففي ذلك فوائد جمة للمربين . أما زمن الشيخوخة ـ أي الزمن الذي تمحى فيه تلك الصفات ـ فيمكننا أن نغض النظر عنه اذ لا علاقة له بدرسنا مباشرة

الفروق الاصلية والفروق المكتسبة

لئن كانت الفروق العقلية والمعنوية طفيفة بين الفتى والفتاة قبل سن البلوغ فانها حرية بالدرس . ومن المستحسن في هذا المقام ان نشير الى ان كلمة « ولد » في معظم اللغات تطلق على كلا الذكر والانثى ـ كأن ليس بينهما فرق يجدر ذكره . والحقيقة ان الطبيعة قد ميزت منذ المهد عقل الرجل وقلبه من عقل المرأة وقلبها . ولا يلبث هـذا التمييز ان يزداد وضوحاً كلما تقدما في السن . على ان التربيـة البيتية التي ينالها الاحداث

تضخم في الغالب ما بين الجهتين من الفروق . فاننا نعامل الغلام كأنه رجل ونكاد نعد الصبيـة امرأة . وذلك يتجلى في ملابسهم وألعابهم وسائر أمورهم فمن شأنها جميعاً تضخيم الفروق التي أقامتها الطبيعة بين الصبي والصبية أو اضافة فروق جديدة اليها . حتى لقد أصبح من الصعب فصل المميزات الاصيلة الطبيعية من المميزات الطارئة المختلقة . فاننا ندفع الصبي منذ السنة الخامسة من عمره الى جهة الرجولة كما اننا نستحث في الصبية صفات الانوثة قبل أوانها . واذا قارنا بين ألعابه وألعابها اتضح لنا ذلك بأجلى بيان فاننا نضع بين يديه الطبول والزمور والبنادق والسيوف والمدافع والعساكر والمراكب الخ . . . في حين اننا لا نعطيها الا الدُّمى (العرائس) والافرشة وادوات الطبخ ولوازم الخياطة والخزائن والمرايا والاشرطة والحلي ونحو ذلك

على انه ليس من الجوهري في نظرنا الفصل بين صفات الصبية الاصيلة فيها وصفاتها المكتسبة ، ولا سيما ان المكتسب من الصفات متى كان متوارثاً على أجيال متتالية يصبح بمقام الاصيل . وانما يهمنا في هذا المقام درسها كما هي اليوم . ولنتذكر في أثناء درسنا هذا : أولاً ان جانباً من أخلاقها مكتسب أو مضخم بتأثير التربية . وثانياً ان ليس بين الاخلاق التي سنأتي على ذكرها خلق ليس في الصبيان ــ ولو بصورة ضئيلة ــ وانما الفرق في درجة بروزه

الحركة

ان الفتيات اجمالاً شديدات الشبه بالفتيان في أدوار معلومة من حياتهن فتراهن يشاركنهم في ألعابهم أو يتمنين تلك المشاركة متى حرمنها . قالت مدام غيزو : « لست أعرف صبية ــ لو أتيح لها اتباع رغبتها ــ لا تفضل ألعاب الصبيان الفظة الخشنة على ضروب التسلية اللطيفة المألوفة لديها . . » وما ذلك الا لأن التعطش الى الحركة فطري في الجنسين على السواء . ومن جهة اخرى قلما تجد غلاماً لا يحب اللعب بدُمية أختـه وأوانيها البيتية لان غريزة المؤانسة ــ كغريزة الحركة ــ أصيلة في كليهما . ومع ذلك فالعاب الفتيان بوجه الاجمال غير العاب الفتيات

واذا درسنا حركات الفريقين وجدناها تختلف في النوع ان لم تختلف في القدر . فحركات الفتيان أرحب وأوفى ولكنها ليست اكثر عدداً . ثم ان الفتيان أميل الى ضروب

الحركة المتسعة المجال كالمشي والجري والقفز ، في حين ان الفتيات اميل الى الحركة المحدودة المحصورة كالحركات التمثيلية وتلك التي تعبر عن مرامي الشعور . وعلى الاجمال فالغلمان يحبون العراك والالعاب الخشنة وسائر مظاهر القوة كما انهم يحبون السيطرة والتأمر. حدثني صديق لي قال : « في احدى حدائق ستراسبورغ قفص كبير يحوي حيوانات مختلفة . فكانت الفتيات اذا اقتربت من القفص نادت الحيوانات بصوت رقيق ثم رمتها بقطع من الخبز . أما الغلمان فكانوا يخشنون معاملتها ويرمونها بالحجارة» وقد شاهد الصديق المذكور هذا المشهد نفسه نحو عشرين مرة فعدّه رمزاً عن الفرق الفطري بين مزاج الجنسين

الكلام

تتكلم الفتيات عادة قبل تكلم الفتيان . وأزيد على ذلك انهن في الغالب يتكلمن اكثر منهم — وان تكن الثرثرة من صفات الطفولة في كلا الجنسين ، اذ تتحول الحاجة الفطرية للحركة والعمل في الاطفال الى تلك الصورة فترى الطفل يتلفظ بكلمات وعبارات لا بداية لها ولا نهاية — كأنه يتكلم لمجرد التلذذ باستماع كلامه . ولكن تلك الثرثرة المستديمة — وان شئت فقل ذلك النزيف اللفظي — اظهر في الاناث مما في الذكور . على انه ليس من غرضنا أن نؤيد بذلك ما تتهم به المرأة احياناً من كثرة الكلام مع قلة الحرص على المعنى

التقليد

الفتيات اكثر تقليداً من الفتيان — وان تكن غريزة التقليد واضحة في الفريقين . ويظهر كذلك انهن اجود ملاحظةً وأشد انتباهاً لما يجري امامهن وان لهن لذة عظيمة في اعادته وتمثيله . وهن يبرعن في ذلك براعة فائقة . ولكنهن اضعف ابتكاراً من الفتيان واقل استنباطاً . وليس اعجب من مراقبة فتية تعيد لدميتها العبارات التي سمعتها من أمها بنغماتها وحركاتها

واذا ثبتت لدينا هذه الخاصة وجدنا انها تسهل علينا تعليل أمور كثيرة في خلق المرأة . فالتقليد قرين المرونة واللين والطواعية والقدرة على التكيف وفقاً لتكيف البيئة . ومن ثم ندرك موهبة الفتاة التي تمكنها من تمثيل كل اشارة وبراعتها في كل ما لا

يستدعي الابتكار ، كما اننا ندرك أيضاً استعداد المرأة لتطبيق نفسها على الاحوال التي تطرأ عليها واستعاضتها بفضل ذلك الاستعداد مما قد ينقصها من التعليم والتهذيب متى ارتفعت فجأة الى مرتبة أعلى من مرتبتها الاولى

على ان التقليد من الجهة الاخرى يؤدي بها الى الانقياد للرأي العام والخضوع للعادات الموروثة والتقاليد المألوفة ، ومنه يتأتى أيضاً الانصياع الاعمى للمودة وضياع الذاتية وافتقاد قوة الابتداع والاختراع

ثم أنه يجوز لنا أن نقرن بهذه الموهبة ـ موهبة التقليد ـ اكثار الفتيات على الخصوص من الاشارات والحركات . وقد نبغ منهن في فن التمثيل غير واحدة ممن لم يجزن دور الطفولة ، أي منذ السنة السادسة بل قبلها . ومعظم نوابغ التمثيل الحديثي السن من الفتيات . ويجدر بنا مراقبة الفتيات من هذا القبيل في معيشتنا العائلية حتى لا يغالين في التمثيل ويعتمدن عليه في بلوغ مآربهن . ثم انك تجد الفتيات أشد حذقاً من الفتيان وأدق تمييزاً في ادراك مرامي الغير واستطلاع افكارهم واحساساتهم ـ ولا سيما متى كان لهن مصلحة في ذلك. وسنرى ان هذه الموهبة ـ التي وجدنا جرثومتها في الفتاة ـ انما هي من اخلاق المرأة التي اكتسبتها مع مرور الزمن لانها اعانتها على البقاء في نزاع الحياة

الاحساس

الفتاة على الاجمال ادق احساساً من الفتى واشد انعطافاً . انظر اليها كيف تحضن دميتها وكيف ترعاها بلهفة وحنان تظهر لك تلك الميزة واضحة . وما ذلك منها الا سبق ظهور لغريزة الامومة ـ وهي الغريزة التي تسمو في المرأة على كل غريزة أخرى . ولله در ميشله القائل : « المرأة أم منذ المهد بل انها تتعشق الامومة حتى لقد تعد بمنزلة الاولاد كل ما يوكل اليها امره ـ حيًّا كان او غير حي » . راقب الفتاة الصغيرة وما تبديه من العطف والرعاية متى سلم اليها أمر اخوتها واخواتها الصغار وكيف تسعى جهدها في ملاحظتهم وارضائهم بل في تعليمهم وتدريبهم ايضاً ـ فانما كل ذلك دليل جلي على ان المرأة خلقت لتكون اماً ومربية في المقام الاول

ان الفتاة بوجه عام اقرب من الفتى الى التأثر والانفعال والاضطراب . ولئن خاف

الأولاد عموماً من الفيران والحشرات فان ذلك الخوف أشد في نفوس الفتيات واوقع . كذلك ترى في معظم الاولاد استعداداً للبكاء لاتفه الاسباب ولكن دموع الفتيات أغزر واسهل ذرفاً . قال احدهم : « ان البكاء من مميزات المرأة في كل ادوار حياتها فبه تنال ما تبتغيه وتأتي العجائب والمعجزات » . أما تعليل ذلك فيرجع بعضه الى أن الانفعال النفسي في الفتى لا يلبث أن يُستظهر بنوع من انواع الحركة فيضيع تأثيره على هذه الصورة ، في حين أن الفتاة ـ لكونها أقل حركة ـ تكظم الانفعال وتكتم التأثر

ومهما يكن الامر فلا جدال في هذه الحقيقة . قال منسنيور دوپانلو : « بعض الفتيات مولعات بالبكاء حتى لقد عرفت بعضهن من كن يبكين امام مرآة لمضاعفة اللذة المتأتية لهن من البكاء »

الاميال

أما فيما يخص الاميال الغريزية فقد نسب الكاتب المتقدم محبة الذات الى الفتيات على العموم . على ان اختباري الشخصي يحملني على الاعتقاد بان الفتيان ليسوا دون الفتيات في هذا الشأن بل اكاد اقول أنهم يفوقونهن فيه . ولكن مظاهر تلك العاطفة تختلف في الفريقين ، كما تختلف فيهما ايضاً مظاهر الغضب والغيرة والنهم والاختيال وغير ذلك من العواطف . فالفتيات مثلاً اشد حرصاً على ازهد الاشياء وأقلها قيمة في حين ان الفتيان اكرم منهن واسمح نفساً . ومن جهة أخرى تجد الفتيان اكثر تصلفاً وتحدثاً بمآثرهم بينا تجد الفتيات أشد عجباً واحذق في جذب الانظار . على انه يجب لوم بعض الوالدات على انماء تلك الصفات في بناتهن بالمغالاة في تزيينهن وتحليتهن والعناية بهندامهن ، مع ان الفتاة على الغالب في غنى عمن يحثها على ذلك اذ ترى جل اهتمامها محصوراً في حسن الظهور مهما تبذل في هذا السبيل ، حتى لقد تستنزل بها التوبيخ ولا تصبر على عدم الاكتراث لها ، بل قد تلجأ الى البكاء كي تجد من يعنى بها و يلتفت اليها . فمن ذا الذي لم يلاحظ الفتيات وهن يلعبن كيف يترقبن من حولهن و يستطلعن آراءهم فيهن بنظراتهن الخفية . على أن الفتيان ايضاً لا يألون جهداً في استعطاف القلوب وبهر العيون والظهور بمظهر الرجال ، ولكن الفتيات اشد اهتماماً بانفسهن من هذا القبيل بل يكدن وهن يلعبن يوجهن نصف حركاتهن واقوالهن الى من حولهن.

والحاقاً برغبة الفتاة في التأثير يجدر بنا أن نذكر خجلها الذي يزداد بروزاً بعد سن البلوغ فيعوق سلاسة افكارها وتعابيرها ويعرقل ما فطرت عليه من الحذق والبراعة . فانها لاتلبث أن تتنبه الى كل حركة من حركاتها وتترقب ما تحدثه من التأثير في النفوس وذلك مما يقف في سبيل مهارتها الطبيعية .

ثم انها من ذلك الحين تتصنع في حركاتها وملامحها واشاراتها على قدر رغبتها في جذب الانظار . حدث منسنيور دوپانلو قال : « كانت فتاة تتنزه في حديقة مع والدتها فاستوقفتها فجأة وقالت : — لنعد يا أماه من هذا الطريق ! — ولماذا يا بنيتي — لان فيه سيدة قالت اني جميلة ! » على اننا لو فرضنا ان تلك السيدة التي حازت عناية الفتاة وعطفها جاءت يوماً لزيارة والدتها فالارجح ان الفتاة تهرب من مقابلتها خجلاً وحياء .

ويتبع ذلك ايضاً كره الفتاة للاستهزاء — لا لاستهزائها بالغير بل لاستهزاء الغير بها — فقد تبيح لنفسها الاستخفاف بمن حولها ولا تطيق اي علامة يؤخذ منها استخفافهم بشأنها ، بل انها تعد ادنى عبارة او حركة في هذا المعنى اهانة عظيمة لها .

ومن اظهر الصفات في الفتيات المنافسة — وعلى الخصوص المنافسة في اجتلاب الرضى وحوز الاعجاب — ولا سيما ان والداتهن في الغالب يدفعنهنَّ في هذا المضمار . على أن ذلك الميل لا يبرر وصفهن على العموم بالغيرة والحسد — وان تكن المنافسة في امزجة مخصوصة واحوال معينة كثيراً ماتتحول الى احدى هاتين الرذيلتين . على ان منسنيور دوپانلو قد ذكر ان اختباره الطويل في تعليم الاحداث حمله على الاعتقاد بانهما على الاجمال أشد في البنات واقوى

واتفق الملاحظون ايضاً على ان الفتيات أقل استقامة من الفتيان وأقرب حيلة واوفر معاذير وأمهر في السياسة وحسن التخلص وأقدر على التلفيق والاختراع وأميل الى الاغراق والمبالغة — وقد يلجأن الى ذلك عن اضطرار او بلا اضطرار لمجرد التلذذ وحب الفن ! وهن أمهر من الصبيان على الخصوص متى تعمدن الكذب فتجدهن أحضر ذهناً واقل اضطراباً

ولكن هذا البحث يدخل في باب الادراك والارادة اكثر من دخوله في باب الاحساس فلنذكر كلمة عن ذلك .

الارادة

لا تتجلى الارادة في أرقى مظاهرها الا بعد سن معلومة . فكلٌ من الصبي والصبية يظل زمناً طويلاً والخوف مستولٍ عليه لا يملك ارادته ولا يسيطر على نفسه . ومع ذلك يجوز القول بان ارادة الفتاة أضعف وأقصر مدىً . فهي في الغالب سلبية دفاعية ، واكثر ما تتجلى في العناد وصلابة الرأي

ولعل الفتاة تفوق الفتى في التقلب والتنقل متى أتيح لها العمل وفقاً لرغائبها المتلونة على الدوام . فلها ميالة بفطرتها الى التعلق بكل رغبة تخطر لها والسعي اليها بكل قوتها

الذكاء

على انه لا ريب في ان الفتاة تسمو على الفتى في ميدان الذكاء . فان ألد أعداء المرأة والقائلين بتخلفها عن الرجل في جميع الميادين لم يسعهم الا التسليم بان ما بين الجنسين من الفروق العقلية انما يظهر بعد سن الشباب وان الفتيات قبل تلك السن اكثر فطنة وأقوى ذاكرة وأقرب الى الفهم والحفظ . على اني – في اختباري الشخصي – قد وجدت ذكاءهن سطحياً ووجدت انهن أقل من الفتيان ميلاً الى المطالعة ودونهم تفكيراً وابتداعاً . ولكن هناك شواذ لهذا الحكم . ومن أغرب هذه الشواذ قصة فتاة أظهرت بين الثامنة والتاسعة من عمرها قوة عقلية فائقة وميلاً عجيباً الى استطلاع المسائل النفسانية والروحانية كمبدإ الحياة ونهايتها ومشكلة الموت والابدية واللانهاية الخ .. ولئن تعذر الاعتماد على هذه الحوادث والاحتجاج بها فلا أقل من ان تبين لنا ان صفة الانوثة لم تكن حائلاً دون نمو العقل على هذه الصورة النادرة . وفي الجملة يصح القول بان ذكاء الفتاة ابكر نضجاً من ذكاء الفتى كأن الطبيعة تمنحها هذا الامتياز لتعيضها من وقوف نموها بعد ذلك

* * *

والخلاصة ان مشاهداتنا في هذا الفصل جعلتنا نستكشف في الفتاة بذور المواهب والسجايا التي استخلصناها من درس حالة المرأة التاريخية وحالتها الجسمانية . وسنرى فيما يلي ما يكون من كل ذلك عند اكتمال نموها اذ تتجلى فيها صفات الأنوثة التامة

الفصل الخامس

احساس المرأة بوجه الاجمال

دور الانتقال

يحسن بنا قبل تشريح المرأة تشريحاً نفسانياً ان نذكر كلمة وجيزة عن دور انتقالها من الحداثة الى الشباب :

لا يخفى ان تلك الفترة خطيرة الشأن في حياتها . ففيها تبرز صفات انوثتها وتتجلى سجاياها الكامنة فتصبح امرأة بعد ان كانت فتاة – كما تتفتح الزهرة الناضرة بعد ان كانت برعماً ضئيلاً . وهذه السن في الغالب محفوفة بالمخاطر الشديدة . لكن الفتاة قلما تتيقظ لما يحدق بها من الخطر ولذا يجب على ذويها ان يتيقظوا لذلك بدلاً منها وان يراقبوها على الدوام في هذا الدور الحرج ليخففوا عنها وطأة الاضطراب العام الذي يستولي عليها . ولا بد لها في هذه الاثناء من ملازمة الهدوء والسكينة حتى يتم الانتقال من غير حدوث ما لا تحمد عقباه

ثم ان هذا التغيير ليس مقصوراً على الحالة الجسدية بل يتناول الحالة العقلية أيضاً . اذ تنمو مواهب المرأة فجأة ويتم تكوينها فتتخذ وجهتها النهائية – وبعبارة أخرى ان خلقها يبرز اذ ذاك ، كما أن ذكاءها ايضاً ينضج بسرعة عجيبة . والبون شاسع بين الجنسين في هذا المضمار فسرعان ما « تركز » الصبية وتصبح راشدة رزينة في حين يقضي الصبي سنين طويلة قبل ان يصير عاقلاً حكيماً . ثم ان أزمة البلوغ تجعل الفتاة شديدة الخجل كثيرة التأمل في نفسها وحركاتها عظيمة الميل الى الوحدة والانفراد . ولعل الاحساس أبرز المواهب في الفتاة وأسرعها نمواً فلنبدأ به درسنا في أخلاق المرأة

شدة الاحساس

لقد أجمع دارسو أخلاق المرأة وملاحظو أطوارها – سواء في ذلك مريدوها ومبغضوها وسواء مادحوها وذاموها – على انها صاحبة الفوز في مضمار العواطف حتى ان

اوغست كونت أطلق على النساء اسم « الجنس الحساس »

والمراد من كلمة احساس في هذا المقام القابلية للتأثر والانفعال ، والاستعداد للتلذذ والتألم ، وللخوف والحب والبغض الخ . . . فتلك القابلية وهذا الاستعداد اكثر بروزاً في المرأة منهما في الرجل . بل انهما يشغلان الجانب الاعظم من حياتها

ويجدر بنا الآن ان نبدأ بتقرير هذه الصفة فنرى ما يدعمها من الادلة والبراهين ثم نستطرد الى تعليلها فتشريحها و بيان صورها المختلفة . واذ ذاك تتجلى لنا خطورة هذا الموضوع من الوجهة التهذيبية

تقاس شدة العواطف غالباً بما يبدو من آثارها في الجسم . فتحول لون الوجه ، واضطراب حركة التنفس ، واختلال الدورة الدموية ، وتغير لهجة الصوت ، وضروب الضحك والبكاء والصياح والتأشير — كل ذلك انما يعبر عما يختلج في الصدر من العواطف على اختلاف انواعها

وقد تكفي مراقبة تلك العلامات في المرأة للتثبت من شدة احساسها . فسواء كانت غاضبة أو مسرورة وسواء بكت أم ضحكت ، نفرت أم عطفت ، تكبرت أم اتضعت ، فانها على الدوام تحس بشكل من الاشكال ولا تبقى دقيقة من غير ان تحب أو تبغض أو تشغل قلبها بعاطفة من العواطف

اعتراضه لومبروزو

على ان نفراً من العلماء خالفوا الرأي العام في هذا الشأن وفي مقدمتهم لومبروزو العالم الاجتماعي الشهير . فقد وصف المرأة بقلة الاحساس ولا سيما فيما يتعلق بالحواس[(١)] فجاء بالتجارب والمشاهدات التي اثبتت ان حاستي الذوق والشم في المرأة (وعلى الخصوص حاسة الشم) أخشن منها في الرجل ، وقدر ان خشونتهما فيها تتراوح بين ضعفي وخمسة اضعاف خشونتهما فيه . وقد نسب الى خشونة حاسة الشم في المرأة اكثارها من استعمال العطور لتتأثر من رائحتها . ثم ذكر شهادة الجراحين عموماً بما تظهره المرأة من الجلد اثناء العمليات حتى ان احدهم نصح بتجريب العمليات الجديدة في النساء اولاً

(١) الاحساس كما لا يخفى حسي أو ذهني . فالاول يتأتى عن طريق الحواس الخمس والثاني يحدث في الذهن مباشرة من غير مداخلة الحواس

لانهن اقل احساساً من الرجال واكثر مقاومة للألم . وذلك يؤيد ما قاله بلزاك من « ان المرأة تخشى الآلام قبل حدوثها ولكنها متى وقعت تحملتها بجلد لا يعرفه الرجل » .ومما يستحق الذكر في هذا المقام ان المرأة اقدر على الاحتفاظ بالهدوء والسكينة بجانب المرضى

على اني اعلل كل ذلك بقدرتها على التكيف وفقاً لمقتضيات الحال و بسلطانها على نفسها وعواطفها . أما لومبروزو ومن ذهب مذهبه من العلماء فيرون في ذلك مناعة ضد الآلام الجسدية تمتاز بها المرأة على الرجل لان الطبيعة قد خصتها بقدر من الآلام يفوق القدر الذي خصته به . واذا اعترضنا على هذا القول بان المرأة حين تنفعل تبدو عليها علامات الانفعال أشد مما تبدو على الرجل اجابوا : « لا يدل ذلك على شدة الاحساس وانما يدل على سرعة الهيجان » كما قال لومبروزو . ثم انهم ينسبون بعض ما يبدو على المرأة من دلائل التأثر والانفعال الى مقدرتها العجيبة على التمثيل بحركاتها والتلاعب بملامحها وعلى الخصوص الى ما لبعض النساء من القدرة على البكاء متى شئن ذلك . وليس من غرضنا ان ننكر هذه الموهبة في المرأة فقد ذكرناها بين الصفات التي تميز الفتاة في حداثتها . وانما نرى مغالاة في الاعتماد على هذا القول لتعليل كل ما تبديه المرأة من العلامات المعبرة عن مرامي الشعور . ولا ريب ان التعليل المعقول لذلك انما هو شدة قابليتها للتأثر والانفعال . فانما الانفعال الجسماني ترجمان الانفعال النفساني

الاستشهاد بعلم الخطوط

وجملة القول اننا لا نتردد في التسليم للمرأة بتفوقها في مضمار العواطف فابرز خلق فيها انما هو دقة الشعور وشدة الاحساس . ومن الادلة على ذلك ما جاء في كتب « علم الخطوط » من أنه يستدل من خط المرأة على انها أشد احساساً من الرجل . وقد قابل أحد المعنيين بهذا الموضوع ٣٠٠٠ رسالة من خط النساء بهذا القدر من خط الرجال فوجد الاحساس ـ على ما انبأ فحص الخط ـ ضعيفاً في ٦٠ امرأة أي نحو ٢ في المئة ومعتدلاً في ٥٣٧ أي ١٧،٩ في المئة وشديداً في ٢٢٠٨ أي ٧٣،٦ في المئة ووجده اقرب الى حالة المرض في ١٩٥ أي ٦،٥ في المئة

أما الرجال فقد وجد ١٤٢ منهم باحساس ضعيف (أي ٨ في المئة) و١١٨٠ باحساس معتدل (أي ٦٦ في المئة) و٧٢٤ باحساس شديد (أي ٢٤ في المئة)

زخم العواطف في قلب المرأة

ويسهل علينا الآن أن نفهم وصف أحدهم لصديقة له اذ سئل عما نعمله وما تفكر به فقال: « انها لم تفكر قط في حياتها وانما هي تحس على الدوام ». وهذا القول ينطبق الى حد محدود على النساء اجمالا. فلاحساس يملأ قلوبهن ـ حتى متى فكرن فانما يكون ذلك بتأثير عاطفة من العواطف

على ان الرجل ينفعل أيضاً ولكن انفعاله بطيء في الغالب ولا يقوى الا شيئاً فشيئاً بعكس انفعال المرأة فانه فجائي في معظم الاحيان. واذا راجعنا كتب الاخلاقيين في هذا الشأن وجدناها مفعمة ببيان هذا الخلق وشأنه في حياة المرأة. قال فناون: « من الصفات الكثيرة الانتشار بين الفتيات سرعة الانفعال لاتفه الاسباب. فاذا رأين شخصين متخاصمين لا يلبثن ان ينحزن الى أحدهما ـ ولو في سرهما. فتراهن على الدوام ممتلئات حباً أو كرهاً على غير أساس: فان أحببن لم يرين عيباً فيمن يحببن وان كرهن لم يرين فضيلة فيمن يكرهن »

ولذا فقد وصف فناون المرأة بكونها « متطرفة في كل شيء » فانها تتطرف في الخير كما تتطرف في الشر، وفي الحب كما في البغض. وقد ذكر غير واحد من المؤرخين انه كلما حدثت اضطرابات عمومية كانت النساء في مقدمة الثائرين جرأة وحماسة واندفاعاً. ومن ذا الذي لم يشاهد تحول المرأة من الحب المبرح الى الكره الشديد؟ فقلما تستقر عواطفها على متوسط الامور والاحوال حتى متى ظهرت بمظهر الرزانة والتعقل. بل انها في الغالب تستلذ انفعالاتها وان يكن الانفعال ناشئاً عن الخوف. قال أحد الروائيين العصريين: « لبعض النساء ولع بالانفعال حتى لقد يفضلن وقوع المصيبة على الحالة الساكنة المألوفة » وفي ظني ان النساء اجمالا يحببن التمثيل ويفضلن في التمثيل المشاهد المحزنة المؤثرة فقلما تجد امرأة تشكو من كثرة ذلك. ولقد عرفت رجالاً كثيرين لم يطيقوا مشاهدة صراع الثيران في اسبانيا في حين انني لم أرَ امرأة او فتاة لم تعلق به. بل لقد رأيت بعيني ألطفهن شعوراً وأرقهن احساساً والحفهن مزاجاً يتتبعن بلهفة تقلبات ذلك الصراع الفظيع ـ وان لم يتمالكن بين حين وآخر من تغطية وجوههن بايديهن او مراوحهن لهول ما يشاهدنه. وليس ادل على كلفهن بهذه المشاهد

مع شدة تأثيرها فيهن من هذا القول الذي قالته لي سيدة أثر حفلة من ذلك النوع « انها لمشاهد فظيعة يا سيدي فلقد حضرتها اكثر من اربعين مرة ومع ذلك لم أتعودها بعد . . . »

ولا حاجة بي الى ايراد الامثلة المثبتة لهذه الميزة في اخلاق المرأة . فلقد اتفق الجميع في هذا الشأن ، كما انهم اتفقوا على أن المرأة متى أمّلت شيئاً أملته بكل جوارحها . قالت مدام دي ريموزا : « انه اسهل علينا معشر النساء أن نحرم لوازمنا من أن نخيب آمالنا » اجل ان جلد المرأة عجيب متى عنينا بذلك جلدها ازاء الشدائد والملمات . ولكنها اذا أملت شيئاً املته بشدة واندفاع واذا تولدت فيها رغبة بذلت كل قواها في سبيل تحقيقها . وقلما يوقفها عند حدها ما يعترضها من العقبات بل قد يتعذر اقناعها باستحالة ما تسعى اليه . قال اكتاف فوليه : « المرأة اما ان تطمح الى ما هو خير من الخير او الى ما هو شر من الشر » فليس الاعتدال والانصاف من صفاتها

ومثل ماقلنا في رغبتها قل في خوفها . فانها اذا خافت شيئاً غالت في تخوفها . ومن الغريب في طبعها انها قد تشعر بتخوف شديد من غير أن يكون لديها باعث معين يحملها على ذلك . ولعلنا قد شعرنا جميعاً في ساعات المرض بخور فجائي يوقع الرعب فينا او بتخوف مبهم عام يستولي على نفوسنا في حين لا يكون لدينا داع لذلك . فهذه الحالة مألوفة عند المرأة فكثيراً ما تحس مثل ذلك الاحساس . ولله در الشاعر الذي قال عن المرأة : « انها خلقت للألم والخوف »

قال ديدرو : « رأيت الحب والغيرة والغضب في النساء وقد بلغت مبلغاً لم يخبره قط معشر الرجال » ثم علل ذلك بقوله : « ان حياة الرجل بما فيها من المشاغل والمشاحنات تصرفه عن اهوائه وتحول دون استسلامه لها . أما المرأة فلها من سكونها وخلو ذهنها ما يذكي أهواءها ويصرفها اليها » هذا فضلاً عن تكوينها الجسماني الذي يجعلها أشد تعرضاً للاضطراب العصبي

لا ريب في ان انزواء المرأة يذكي فيها سلطان الاهواء كأن الاهواء تختمر في الوحدة والسكون . بل انهما يؤثران هذا التأثير ذاته في خلق الرجل فانه اذا لم يستظهر امياله النفسانية ويضيع مفعولها بصورة من الصور لا تلبث أن تتضخم فيه بالتدريج وتصبح شغله الشاغل

وجهة الاحساس الغالبة

لننظر الآن ما هي الوجهة الرئيسية التي يتخذها احساس المرأة . فهل اتجاهها الغالب نحو الحب أو نحو البغض ؟ ان الجواب على هذا السؤال لا يحتمل الشك عندي فلا ريب في ان الحب هو محور العواطف وأساسها ولا سيما في المرأة ، بل ان الامر كذلك في الرجل ايضاً ولكن الى حد محدود . على ان المرأة لا تخلو من العواطف الاخرى كالكره والبغض والحسد والغضب الخ . . ولكنها انما تكون تابعة للحب ومرتبطة به على صورة من الصور . ثم ان النساء وان يكن بفطرتهن ارق قلباً من الرجال فقد يتحولن الى القسوة متى حال حائل دون رغبتهن . ولكن تلك القسوة قلما تكون عامة وانما تنحصر في ما يعرقل حبهن فتتخذ صورة محسوسة كالكراهة والانتقام

ان الحب ـ بمعناه الواسع ـ وما آل اليه من الشعور مصدر فضائل المرأة جميعاً . كما انه متى صُدم وأُعيق كان مصدر نقائصها ايضاً . فهو منشأ قوتها ومنشأ ضعفها . ومن المعلوم أن المرأة متى أحبت بلغت اعلى درجات التضحية مما يفوق قدرة الرجل . ولكن حبها هذا قد يفقدها رشدها ويحملها على التضحية بما لا ينبغي قط أن يضحى به ـ نعني شرفها . على أن الكاتبة الفرنسية الشهيرة المعروفة باسم جورج ساند قد خففت من زلة المرأة متى صدرت عن عاطفة شديدة بقولها : « لقد نجد بين النساء الساقطات من هن افضل من بعض الحكماء بل افضل من الذين يرمونهن بالحجارة »

الحب مرجع لذات المرأة جميعاً فلا لذة لها في شيء الا اذا ربطته بالحب علاقة من العلاقات . ولذا فالنساء على الاجمال شديدات الانكباب على مطالعة الروايات الغرامية . لانها تحدثهن عما يلذ لهن وعما يشغل قلوبهن . بل لقد يصبرن على مطالعة الكتب الفلسفية العويصة متى كان موضوعها الحب . وفيما عدا ذلك قلما يلذ لهن موضوع من المواضيع . قال احد النقادين الحديثين : « اذا طالعت المرأة رواية فانها انما تبحث فيها عن اسرار حياتها او عن اسرار حياة مناظراتها » . على انه ليس ضرورياً عندي ان يكون لها اسرار او مناظرات لتستلذ مطالعتها . بل يكفي لذلك ان تحوي الرواية بعض احاديث الحب والغرام : فتذكرها بحبها اذا كانت قد احبت او تقوم مقامه اذا لم تحب بعد

ان حب المرأة متى بلغ اشده داخلته عناصر مختلفة فيصبح مركباً صعب التحليل .

وفي نظري انه يختلف عن حب الرجل في امر جوهري وهو انه يمازجه شيء من التخوف ، في حين ان الرجل يعجز عن تبصور حب يمازجه هذا الشعور . بل ان الخوف اذا داخل قلبه لا يلبث ان يقتل الحب فيه . لان من شروط الحب في الرجل السيطرة والسيادة . اما المرأة فيندر ان تحب من غير أن يداخل حبها الجزع والقلق . قال جورج اليوت (وهو اسم مستعار لكاتبة انكليزية شهيرة) : « لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء » وما ذلك الا لأن المرأة تعلم انه لا يمكن الاستناد الا على ما كان صلباً متيناً . فلا غرابة اذا احتقرت من كان بين ايديها كالالعوبة

ومن المميزات المنسوبة الى حب المرأة ما دعوه « جاذبية الثمرة المحرمة » أي ان ما حرم عليها حبه يجذبها ويستميلها . على ان ذلك الطبع مشترك بين الرجل والمرأة على السواء . « فكل ممنوع مرغوب » وذلك لاسباب كثيرة : فالممنوع اولاً لم يمنع الا لانه جذاب بطبعه والا لم يكن ثمت داع لمنعه . ثم ان العقبة تذكي الرغبة وتضاعفها – كما يتضاعف زخم الماء حين يقام سد في مجراه . ومع ذلك فلعل المرأة اشد افتتاناً بما يحرم عليها : فقد رأينا انه يداخل حبها شيء من الخوف والقلق وذلك من شأنه ان يؤجج عاطفتها . ثم ان المرأة – لقلة اعمالها ومشاغلها – اضعف من الرجل مقاومة للفتنة والتجربة ، أو هي كما يقول علماء النفس الحديثون اشد منه تعرضاً للاستهواء . بل ان التحريم نفسه يستهويها ويجعلها تفكر على الدوام فيما حرم عليها

فائدة تهذيبية

وبناء على ذلك نستطيع منذ الآن ان نضع قاعدة أساسية للتربية وهي « الاقلال من التحريم بقدر المستطاع » ولا سيما في تربية البنات . فاننا في الواقع نحرم عليهن من الامور اكثر مما نحرم على غيرهن . وما ذلك التحريم في الغالب الا حافزاً لهن على زيادة التفكير بالمحرم والسعي اليه

ومن فوائد هذا الدرس لتربية البنات ايضاً انه يحملنا على انماء الصفات التي من شأنها تهميد اندفاعهن وتخفيف ما بهن من رقة الشعور وسرعة التأثر والانفعال ، حتى يخضعن قلبهن لعقلهن . وليس من المحتم أن يكون العقل والقلب متناظرين متضادين . ولئن كان الاول غالباً في الرجل والثاني في المرأة فعلى التربية أن تمزج حب المرأة بالرزانة والتعقل وان تضيف الى حكمة الرجل حرارة العاطفة والشعور

الفصل السادس

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها الذات

اقتصرنا في الفصل السابق على درس احساس المرأة بوجه الاجمال و بيان قابليتها الشديدة للتأثر والانفعال . وعلينا الآن أن نحلل ذلك ونرى ما في قلب المرأة من الميول والغرائز والعواطف على اختلاف صورها ومظاهرها والمقابلة بينها و بين الرجل من هذا القبيل . فبالمقابلة تبرز الصفات وتتضح . وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الفصل وفي الفصلين التاليين

قلنا في آخر الفصل السابق ان الحب ـ وما يترتب عليه من فضيلة ورذيلة ـ يشغل الجانب الاعظم من حياة المرأة ، في حين أن الرجل يحيا بالفكر والعقل اولاً . على ان هذا الحكم تقريبي اجمالي لا يصح اعتماده في جميع الاحيان . بل اننا اذا اعتبرنا « الحب » بمعناه السامي وجردناه من مظاهر الانانيـة وحب الذات اخطأنا المرمى . فليس على الارض مخلوق بشري لا يحب ذاته وانما يتغلب الانسان احياناً ـ بالجهد والتمرين ـ على تلك العاطفة الطبيعية

حب الذات

فالميل الفطري في كل مخلوق هو أن يحب نفسه اولاً . والمرأة في ذلك نظيرة الرجل ـ وان اختلفت فيهما مظاهر هذا الميل . على ان فريقاً من الكتاب قال بتفوق المرأة من هذا القبيل . قالت مدام غيزو : « لا تعنى المرأة بشيء ليس له علاقة بشخصها » . وقالت مـدام نكر دي سوسور : « اذا تبينت اخـلاق الشابات ولا سيما المتحضرات المترفهات وجدت همهن الاول أن يجذبن الانظار ويبهرن العيون لا أن يحببن بصدق واخلاص » ثم اضافت الى ذلك قولها : « الا ان الطبيعة تعود فتتقاضى حقها من قلب المرأة بعد مجاوزتها سناً معلومة » . واذا طالعنا الروايات الغرامية الحديثة ودرسنا اخلاق « عرائسها » لم نجد فيها قلوباً صادقة فياضة . وانما نجد بدلاً من ذلك نزوعاً الى التظاهر وسعياً لجذب الانظار ، بل نجـد قلوباً لا تكاد تحب غير نفسها » فمن امثلة

ذلك وصف موباسان لعروس احدى رواياته بقوله انها : « ... كانت تعبد نفسها عبادة » . ومنها ايضاً وصف الفونس دوده للمرأة بانها : « كالولد الطائش بكل ما فيه من خبث ورداءة وكذب وجبانة ! ... فضلاً عن كونها نهمة فضولية معجبة بنفسها ! »

تلك بلا ريب أوصاف مغالى فيها أو ان شئت فقل انها لا تنطبق الا على بعض الشواذ . ومع ذلك نجد فيها قسطاً من الصواب . فحب الذات فطري فينا وهو محور أعمالنا في الغالب - سواء في ذلك معشر الرجال ومعشر النساء . وما كنا لنرى في التضحية وانكار النفس جمالاً لو لم يستلزما التغلب على ذلك الميل المتأصل في الطبيعة البشرية

فعلى ذلك نرى ان الانانية مشتركة بين الجنسين وانما الاختلاف في اتجاهها ومظهرها . فما هي وجهة الانانية في المرأة وأي الصور تتخذ ؟ هذا ما ينبغي لنا الاجابة عنه الآن

ولنبدأ بدرس مظاهرها السفلى ثم نتدرج الى مظاهرها الراقية - والمراد بالمظاهر السفلى تلك التي تغلب فيها الشهوة الجسمانية أي تلك التي تتعلق بالجسم ومطالبه الحيوية . أما المظاهر الراقية فهي التي تصدر عن منازع النفس ورغباتها

المظاهر السفلى

يجوز لنا ان نقول بوجه الاجمال ان الانانية في أخشن صورها - أي حين تكون جسمانية شهوانية - أضعف في المرأة منها في الرجل . فحاجاتها أقل من حاجاته عدداً كما انها دونها شدة . وذلك اما طبيعي فيها أو ناشىء عن تعودها القناعة والاكتفاء واضطرارها الى كبح رغباتها ، في حين ان الرجل قلما يقاوم ما في نفسه من رغبة وشهوة لكونه صاحب القوة والسيادة . وعلى ذلك يصح اتهام الرجل في الغالب بانصياعه لمطالب فمه ومعدته وحواسه اكثر من انصياع المرأة لها . على ان البعض ينسبون الى النساء عموماً الائتمار بمطالب حاستي الشم والذوق بشاهد تعشقهن للروائح العطرية ولصنوف الحلويات (من ملبس وشوكولاته ونحو ذلك) . على اني أعتقد ان هذا الميل - اذا سلمنا به - ليس أصيلاً في المرأة وانما ينشأ في بيئات مخصوصة وفي أحوال معينة . وعلى كل حال لو فرضنا اننا سلمنا بهذه الخصلة فانها أقل شناعة من ضروب حب الذات

الاخرى التي يتصف بهـا الرجل . ولا ريب في ان المرأة بطبيعتها أقنع من الرجل في طلب الاكل ـ وان يكن احساس الجوع فيهـا اكثر تواتراً كما ذكرنا ، كأنها تسلي نفسها بالقضم والاكل من حين الى آخر . وهي ايضاً أقل اقبالاً على المشروبات المهيجة ويندر ان تتعود التدخين أو تستلذه

أما ما ينسب الى المرأة من الكسل فسنعود الى درسه في فصل الارادة . وانما نقتصر الآن على الاشارة الى انها اكثر نحافة من الرجل واسرع تعباً واشد تأثراً من تقلب الجو . ولعل معظم ذلك نتيجة العادة والتربيـة . فقلما يبدو شيء منه على النساء اللواتي يعملن في المزارع فلهن نظيرات الرجل في الهمة والنشاط والقدرة على العمل . بل في المدن أيضاً تكاد بعض النساء تضاهي الرجال في الحركة ـ بين الاهتمام بامور المنزل والقيام بالواجبات الاجتماعية من زيارات واحتفالات الى غير ذلك من المشاغل الكثيرة التي تستلزم جلداً عظيماً .

والجملة ان حاجات المرأة وشهواتها تختلف عن حاجات الرجل وشهواته : في نوعها اولاً . ثم في شدتها ، فهي على العموم اقل شدة واسهل مراساً

المظاهر الوسطى

وما عسانا ان نقول الآن عن الميول المؤلفة من عناصر جسمانية وعناصر نفسانية معاً ـ كغريزة الامتلاك مثلاً ، وغريزة التعلق بالمألوف من الاشياء والامكنة ، وعلى الخصوص غريزة التمسك بالحياة التي يضعها علماء النفس عادة في هذه المرتبة ؟

ان هذه الغريزة الاخيرة متأصلة في اعماق النفس وقلما نجد فرقاً بين الجنسين من هـذا القبيل . فالاختلاف فيها فردي لا جنسي . على ان الشعراء ينسبون حب الحيـاة الى الجنس الضعيف على الخصوص . فالتعلق الشديد بهذا العالم ليس من صفات الرجولة والمتوقع من الرجل ان يكون اجرأ من المرأة واكثر اقـداماً واشد اقتحاماً للاخطار . ولـكن لئن ابدى الرجل شجاعته في ميادين القتال فللمرأة ايضاً ميادين تتجلى فيها شجاعتها . وقد لا تجاوز تلك الميادين حيطان منزل او غرفة مريض بل قد لا تتعدى خد نفسها . وقد قال فيكتور هوغو : « ان ثوران الشعوب ضئيل بجانب ثوران النفوس » . تلك هي شجاعة النساء ولعلها اكثر ابتشاراً بينهن من انتشار شجاعة الرجال بينهم

والذي يؤخذ من الاحصاءات ان الرجال اكثر من النساء إقداماً على الانتحار ـ بنسبة ٤ الى ١ ـ ولذلك اسباب كثيرة ليس هذا محل الافاضة فيها

أما غريزة التعلق بما يؤلف من الاشياء والامكنة فطبيعي أن تكون اكثر بروزاً في المرأة نظراً لمعيشتها البيتية الهادئة ، كما انه من الطبيعي أن تستصعب المرأة مفارقة دارها اذا اضطرت الى ذلك . وعلى وجه الاجمال نرى المرأة اشهد من الرجل تعلقاً باشيائها المألوفة فهي تعدها بمنزلة تذكارات ثمينة بل تكاد تكون مقدسة في نظرها . على أن ذلك الميل فيها انما ينشأ عن حساسيتها الفطرية التي تشمل كل ما له علاقة بها وبمن تحبهم . وهذا يعلل لنا ايضاً ضعف الميل المذكور في الرجل على العموم فما ذلك الا لكثرة تنقله بين الاشياء والناس

أما غريزة الامتلاك فبارزة ايضاً في المرأة . ولئن تجسم البخل في الروايات الشهيرة بصورة رجل فقد اتفق الملاحظون على ان المرأة بوجه الاجمال أشد بخلاً من الرجل . وذلك منذ الطفولة ، ولكن على الخصوص في سن الشيخوخة . قالت مدموازيل لوربول التي درست هذا الموضوع في الاحداث درساً دقيقاً : « كثيراً ما يشترك الفتيان بعضهم بعضاً فيما لديهم ، اما الفتيات فلهن أشد ميلاً الى الاحتياز والامتلاك الفردي . فقد يتبادل الفتيان قبعاتهم وكفوفهم بسهولة بينا نرى كل فتاة متمسكة بقبعتها وكفوفها » قالت : « حدث لي غير مرة اني رأيت بين الفتيان من كان يشتري بعض الحلويات بدراهمه ثم يسلمها الى أحد رفاقه ليقسمها بين الجميع . أما الفتيات فاذا اتفق ان جرى بينهن مثل ذلك فان التي تدفع الدراهم لا تتنزل عن حقها في التقسيم »

وقالت مدام دي جيراردان : « اندر ما في فرنسا ـ بعد المرأة الغشيمة ـ انما هو المرأة الكريمة » وهي لا تريد بذلك الكرم في الانفاق فقط بل تشير الى ضروب الكرم المختلفة ـ لانها متماسكة جميعاً ومحكمة القرابة فيما بينها

والذي يؤخذ من كل ذلك ان المرأة ـ لكونها ميالة بفطرتها الى التطرف في كل شيء ـ تغالي في البخل متى نحت ذلك النحو . قال فنلون في كتابه « تربية البنات » : « احذروا أن يتحول فيهن الاقتصاد فيصير بخلاً وبينوا لهن حقارة تلك الرذيلة وانها تكسب قليلاً وتفضح كثيراً . فانما يتأتى الاقتصاد الحقيقي عن النظام والترتيب لا عن الشح والتقتير » أجل ان منشأ البخل في النساء انما هو في الغالب ميلهن الى الادخار

والاقتصاد . وبعبارة أخرى ليس بخلهن الا تطرفاً في فضيلة ممدوحة . ومن ذلك ندرك الصورة التي يتخذها البخل فيهن عادة : فالمرأة لا تطلب الكسب والتحصيل والتجميع وانما تمتنع عن البذل والانفاق وتكره ان تتخلى عما لديها . على أن ضعف المرأة وقصورها وتعرضها للعلل والامراض واهتمامها بأمر الاطفال وتدبير الدار - كل ذلك من شأنه ان يحملها على التحوط والتحذر خوف الحاجة والفقر . وقد جاء في كتب علم قراءة الخطوط انه يستدل من خط المرأة على ان بخلها « سلبي » في معظم الاحيان

ولقد ترى بعض النساء شديدات الاسراف والسخاء على هندامهن وزينتهن من غير ان يكن على شيء من الكرم . فليس البذخ دليلا على الكرم

فليتنبه المربون اذاً الى ما اسلفناه من الميول حتى لا تتطرف المرأة في احدى الجهتين بل تعرف كيف تنفق بترتيب واعتدال

المظاهر الراقية

لننتقل الآن الى الصور النفسانية التي يتخذها حب الذات . فأي تلك الصور اظهر في المرأة ؟ يجب ان نميز في هذا المقام بين عاطفتين او بالاحرى بين نوعين من العواطف : التكبر والعجرفة والغطرسة من جهة ، والعجب والاختيال والميل الى الظهور من جهة اخرى . فانها جميعاً من صور حب الذات . ولكنك في الغالب تجد النوع الاول أظهر في الرجال والنوع الآخر أظهر في النساء . قالت مدام دي ريموزا : « الاحوال التي تحمل الرجل على التكبر قد لا تحمل المرأة الا على العجب والاختيال . فالتكبر ينشأ عن اعتقاد الانسان بقوته وتفوقه ، في حين ان عجبه يتأتى عن التأثير الذي يحدثه في نفوس الغير . وبعبارة أخرى ان هذا الشعور الاخير يستدعي وجود شخص أو أشخاص يقع عليهم التأثير المطلوب ، حالة كون الشعور الاول قد لا يتعدى من يشعر به » . أجل تلك هي الغريزة الفطرية في خلق المرأة فانها تسعى بطبيعتها للتأثير في النفوس . قال فنلون : « لا تخشوا شيئاً كعجب الفتيات وحبهن للظهور . فانهن يخلقن وفيهن ميل شديد الى التأثير ولفت الانظار »

على اننا لا نستثني معشر الرجال من هذه الغرائز الطبيعية . فقد حدث مرة اني سألت

احدى السيدات المستنيرات عن الخلق الذي تظنه مميزاً لجنسها . فاجابت على الفور : « حب الظهور » ثم قالت : « لولا هذا العيب البارز في المرأة لكان لها من براعتها في التكتم ما يؤهلها لادق المراكز السياسية . ولكن ما فيها من العجب بنفسها ومن حب الظهور والتأثير يسهل قيادها والايقاع بها » على أن الصدفة جمعتني بعد قليل باحد رجال السياسة المحنكين فذكرت له ما دار من الحديث بيني وبين تلك السيدة فاجابني في الحال : « انها لفي خطإ عظيم . ومن الجهل تفضيل الرجل على المرأة في هذا الشأن . بل اكاد اقول انه اكثر منها سعياً وراء الظهور . ففي تسع مرات من عشرة تجده مدفوعاً بهذا الدافع الذي يوقعه في زلاته والذي يحمله على افشاء ما ينبغي له كتمانه » .

لعلنا الآن اقرب الى انصاف المرأة – لا بانكار ما فيها من حب الظهور والتأثير – بل بانكار انفرادها في هذا الشأن . على ان صور هذا الميل تختلف في الجنسين : فانه في الرجل اقرب الى الغطرسة والاعتداد بالنفس في حين انه في المرأة قرين التيه والدلال – وهو ما يعبر عنه بكلمة coquetterie وما هي الا السعي الفطري في المرأة (وقد لا تتعمده بل قد لا تحسه ولا تدري به) للفت الانظار واستمالة القلوب – ولا سيما انظار الرجال وقلوبهم

هذه حقيقة اتفق في شأنها جميع الذين لاحظوا المرأة ودرسوا أخلاقها بل انها مبتذلة تتداولها ألسنة الصغار والكبار في كل مكان . قال روسو : « تيه المرأة جزء من وظيفتها » . وقال لاروشفوكو : « التذلل أساس مزاج النساء » وقال آخر : « قد تتغلب المرأة على هواها ولا تتغلب على غريزة البهر والتأثير » . ولا غرابة في كل ذلك اذ لا بد للمرأة من لفت الانظار كي تحب – فالحب غايتها القصوى في الحياة – بل انها مضطرة الى ذلك بحكم حالتها الاجتماعية فلا نفوذ لها ولا سلطان الا باستمالة الرجل . هذا هو سلاحها الوحيد في جهاد الحياة ولكنه سلاح لا يستهان به . ولذا فلا لذة عندها تعادل اللذة الناشئة عن فوزها في هذا الميدان وتوصلها الى التأثير في نفس الرجل . قال رينان في مذكراته : « أعظم اطراء في نظر المرأة أن يبين لها ما تحدثه في القلوب من التأثير الشديد » وقال فنلون : « لما كان الطريق المؤدي بالرجل الى السطوة والمجد مسدوداً في وجه المرأة فانها تستعيض منه بلذات العقل والجسد : فمن ثمَّ تنشأ حذاقة النساء في الحديث كما ينشأ اهتمامهن بضروب الزينة والتنميق والزخرفة . فعصابة

الشعر او لون الشريطة او طرز الثوب او شكل القبعة – تلك عندهن مسائل خطيرة الشأن »

ان هذه الجملة مع ما فيها من روح الهزء تبين بعض الطرائق التي تتخذها المرأة توصلاً الى غرضها من قلب الرجل . على ان أقدم الطرائق لبلوغ هذا الغرض وأبسطها وأعمها انما هي« الجمال ». ولذا فاول مطمح للمرأة هو أن تحوز اعجاب الرجل بجمالها . واذا لم يتيسر لها الجمال توخت في نفسها الرشاقة أو الذكاء أو رقة الخلق أو طيبة القلب أو غير ذلك . ولكن الجمال هو بلا ريب اول مطامعها حتى أن احذق السيدات واعقلهن وابرعهن لا يرتضين ان يطرى حذقهن وعقلهن و براعتهن اذا اغفل أمر جمالهن

يحكى عن مدام دي ستال الادبية الشهيرة انها كانت تغار من مدام ريكاميه صاحبة الجمال الرائع . فحدث يوماً ان الكاتب لاهارب دعاهما الى حفلة موسيقية . فجلس بينهما ثم التفت الى صديق خلفه وقال له : « اني جالس بين الذكاء والجمال » (يشير الى رفيقتيه). فما كان من مدام دي ستال الا ان عدت قوله هذا اهانة لها فانتهرته بحدة قائلة : « وهل انا بهيمة في نظرك يا ترى ؟ »

حب المرأة للتقريظ

وخليق بنا الآن ان نذكر بعض آثار هذه الغريزة في خلق المرأة . فمن ذلك تأثرها الشديد من التقريظ الموجه الى محاسنها الجسدية – مهما تكن عاقلة رزينة ، بل حتى حين لا يكون ذلك التقريظ مطابقاً للحقيقة . قال أحدهم : « لن تطيق اعقل النساء انتقاداً على جسمها . بل انها تفضل أضأل تقريظ لذلك الجسم على أعظم مدح لسجاياها العقلية » . وقد ألحت مدام غيزو في وجوب الانتباه الى ما يوجه للشابة من صنوف الاطراء . فانها حالما تتجاوز دور الحداثة تصبح وكلها آذان مصغية الى مديحها . وهي بطبيعتها تفضل التقريظ والاطراء على الاكرام والاحترام . فعلى التربية ان تقاوم فيها ذلك الميل . ولله در من قال : « التمليق أشد فتكاً في النساء من الحب » . وليس أدل على هذا الخلق في المرأة من نصيحة سيدة نبيلة لولدها الذي كان على وشك الدخول في العالم والتردد على الصالونات وهي قولها له : « ليس لي الا نصيحة واحدة أقدمها لك.وهي ان تظهر كأنك تعشق كل النساء »

ومن ذلك أيضاً حب الزينة والتنميق و «التواليت» . وقد سمى أحد الكتاب الجوتيين ذلك الميل الغريزي في المرأة « بشيطان التواليت » وعد هذا الشيطان خاصاً بالجنس اللطيف . قال : « كأن الهندام قد أصبح لدى النساء بمنزلة عضو جديد » . ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان النساء اجمالاً يخطئن في تقدير تأثير هندامهن وزينتهن في الرجال . اذ قلما يحفل الرجال بشيء من ذلك . واذا حفلوا به فانما يعدونه اعترافاً من النساء بسعيهن لاستمالتهم . بل قد لا يسعهم أحياناً الا الاشمئزاز من ضروب التطرف والمغالاة في هذا الموضوع . هذا اذا لم يكن الرجل الا مشاهداً . أما اذا كان هو المنفق على ذلك فخليق به ان يتذمر — وكثيراً ما نسمع هذا التذمر . قال أحدهم : « من شاء ان يجلب لنفسه الهموم والمتاعب فعليه اقتناء واحد من شيئين : سفينة أو امرأة . فليس في العالم شيء مثلهما يصعب تجهيزه » ومن ألطف ما قيل في هذا الباب قول لابروييز منتقداً المغالاة في أساليب الزينة والتنميق والزخرفة — ولا سيا متى تقدمت المرأة في السن : « . . . كأن تقبيح شكلهن لا يتأتى لهن بالسهل فيبذلن في سبيله جهداً جهيداً »

ولا يقتصر هذا العيب على ضروب التحسين الجسماني بل يتناول كذلك سعي بعض النساء للظهور بمظهر التفنن في الحديث والبراعة في التنكيت . فالتصنع في هذا الباب مدعاة للهزء والسخرية . وعلى الاجمال — مهما تكن الغاية التي ترمي اليها المرأة — فانها تقلل بلا ريب من حسنها متى تعمدت تحسين نفسها . ولله در ماريفو القائل : « بعض النساء جديرات بأشد الاعجاب لو لم يعلمن انهن جديرات بذلك »

الحسد

ولعل أسوأ ما في طلب الظهور والتأثير انه يرافقه غالباً تنافس حاد بين النساء يدفع كل واحدة منهن الى طلب التفوق على نظيراتها . وكثيراً ما يحملهن هذا الميل الى انتهاج مسالك غير قويمة . ولله در مدام دي جيراردان القائلة : « لا تقنع المرأة بالمديح متى شاركتها فيه امرأة أخرى » فانها تعد ما يناله غيرها كأنه مسلوب من حقها وما يرفع شأن غيرها كأنه خافض لشأنها . ولعل ذلك منشأ ما يحدث بين النساء من التباغض الذي يضرب بحدته المثل وما يظهرن من الخبث والرداءة . ولهذا تجب مراقبة تلك الغريزة في الفتيات على الخصوص . فانهن أشد انقياداً اليها من الفتيان . فلقد عرفت فتيات

تسمم شبابهن من جراء هذا الضعف الخُلقي . فسرعان ما تتحول المباراة والمنافسة الى تحاسد وتغاير . وهو ما يعلل لنا اتهام الكثيرين للمرأة بتأصل هاتين الرذيلتين في خلقها

على ان الغيرة جديرة بالاحترام بل بالشفقة متى تأتت عن خوف المحب ان ينتزع منه حبيبه . ولكن بين غيرة الرجل وغيرة المرأة فرقاً جوهرياً بيّنه الفيلسوف كَنْت بقوله : « يغار الرجل متى أحب . أما المرأة فقد تغار من غير ان تحب اذ تعد كل ظريف ينحاز الى نظيرتها بمنزلة حبيب تفقده »

أما الحسد فقد يؤدي بالمرأة الى اوخم العواقب اذ يدفعها الى مجاراة زميلاتها في كل شيء حتى لقد تلجأ « الى بيع الخراف لجلب الحرير والى اكل الخس لاقتناء الاواني » كما يقولون

وأشد ما يكون الخطر على المرأة من جراء ذلك زلل قدمها في سبيل الغواية والفساد . فكثيراً ما ترى في النساء – حتى الشريفات منهن – رغبة خفيَّة في اجتذاب كل متعشق يحوم حول نظيراتهن . أضف الى ذلك ما يترتب على هذه المنافسة من الضغائن الخبيثة والحزازات القتالة تدرك مراد الكاتب اللاتيني (بروبرس) القائل : « أشد الحقد والبغض ما نشأ عن الحب » على انه يجدر أن يضاف الى هذه الجملة قولنا : « . . . وما نشأ ايضاً عن التنافس في طلب الظهور والتأثير »

وقد يؤدي ذلك بالمرأة الى التهكم والاستهزاء فترى استهزاءها اذ ذاك قرين الخشونة والرداءة مما ليس فطرياً فيها . فان الفتاة متى جاوزت سن البلوغ تخشى عادة أن ينالها شيء من الاستهزاء وهذا ما يجعلها ان تتحاشى خدش احساس الغير بل يجعلها تجتنب المداعبة البسيطة ولا سيا في موضوع الزواج

الطموح

هل في المرأة طموح الى العلا والرفعة والعظمة ، وهل الطمع من طبائعها ؟ تتعذر الاجابة عن هذا السؤال لانه لم يتح للمرأة بعد أن تبدي ميلها من هذا القبيل اذ لا تزال ابواب السعي ضيقة في وجهها . على أن ذلك الطموح مشاهد في المدرسة بين الفتيات والفتيان على السواء . بل لقد قالت احدى المربيات أنه في الفتاة أشد منه في الفتى وايدت ذلك بقصة تلميذة كانت دائماً الاولى في صفها فوجدتها يوماً كئيبة تترقرق الدموع

في عينيها و بعد الاستفحاص فهمت أن سبب ذلك هو ان الفتاة مع كونها لا تزال الاولى في جميع الدروس فقد شق عليها ان يكون الفرق في العلامات هذه المرة بينها و بين الثانية أقل من المعتاد .

اما الطموح الى المراكز الرفيعة بين الناس فلا ريب في انه من أشهى مبتغيات المرأة لانه يؤدي الى الظهور والتفوق . على أن هذه العاطفة فيها تمتاز بكونها تتناول الاسرة جميعاً فالمرأة تود أن ترى زوجها واولادها ودارها في تقدم مستديم . فتلك مفخرتها العظمى . ولكنها كثيراً ما تتجاوز ذلك الى المفاخرة باصلها و بآبائها ولا سيا عند ما يقع من المشاحنة بينها و بين زوجها

على ان هذا التفاخر كثيراً ما يشاهد في الرجال ايضاً . ولكنه أخف فيهم على الاجمال . ولعل ذلك لان الرجل صاحب شخصية قوية مستقلة تجعله يعتمد على نفسه ويفتخر بمآثره في حين أن المرأة مضطرة الى الاستناد على شيء خارج عنها لتفاخر به كاصلها وأسرتها وزوجها .

ولذا فطموح المرأة على الغالب متعلق بزوجها . على انها تحفل بكرامة مركزه عند الناس اكثر مما تحفل بأهمية ذلك المركز في الواقع ، أي انها تعنى بمظهره اكثر من عنايتها بحقيقته . ومن ذلك يتبين لنا اهتمام المرأة بما يناله زوجها من الرتب والنشانات . فقلما تجد امرأة لا ترغب في ذلك

حب السيطرة

هل نعد حب السيطرة بين طبائع المرأة ؟ لا يجوز لنا الاجابة بالايجاب الا اذا عنينا بذلك ما فيها من الميل الفطري الى التسلط على قلب الرجل ولاسيا قلب زوجها . فانما تحملها على ذلك وظيفتها النسائية وهي كما رأينا لا تنال شيئاً الا بالحظوة في عين الرجل . أما السيطرة الواقعية بمعنى الاستبداد والاستعباد فليست من فطرتها وقد لوحظ « أن الفتى يحب التأمر في حين أن الفتاة لا تحفل الا بالاكرام والتقريظ »

الا ان المرأة الخاضعة لزوجها المطيعة لرغائبه كثيراً ما تكون ميالة الى الاستبداد بخدامها والتجبر على من هم دونها . تلك خساسة معهودة في كل من كان مذلولاً لسيده كأن الخشونة مع المرؤوس انتقام من الرئيس . وليس هذا الخلق مقصوراً على جنس دون آخر .

الفصل السابع

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها الغير

يظهر للمتبصر في خلق المرأة انها جعلت للحياة الاجتماعية اكثر مما جعل لها الرجل. فانها لا تطيق العزلة والانفراد. فلئن عمد بعض الرجال في احوال استثنائية الى طلب الوحدة وهجر العالم ومن فيه بقصد التكفير واماتة النفس ـ وكأن في ذلك اعترافاً بخروجهم عن سنة الطبيعة ـ فانا لا نعرف امثلة لنساء عمدن الى ذلك. بل ان كلمة «ناسك» في معظم اللغات ليس لها مؤنث. لانه لم يحدث ـ على ما نعلم ـ ان تنسكت امرأة في زمن من الازمان. فقد فطرت النساء على حب المعاشرة والمؤانسة ولا قدرة لهن على مقاومة هذا الميل الغريزي

رأينا ان المرأة تسعى لاسترضاء الرجل واستمالته وانها تبذل جهدها لتكون مستحبة اليه. تلك حاجة متأصلة في فطرتها. على أن في تلك الفطرة حاجة أخرى اكثر تسلطاً على نفسها واشد أثراً في حياتها. فلئن ودت أن تكون محبوبة فانما رغبتها الاولى أن تكون هي الحابة. ولعل ما تبذله من قبيل استرضاء الرجل واستمالته ليس الا نتيجة لتلك الرغبة المتمكنة من خلقها. وعلى كل حال فهذان الميلان مترابطان. فالغالب ان يكون الحب متبادلاً كأن تلك العاطفة تسري بالعدوى اذا انبعثت من قلب الى قلب لم تلبث ان تنعكس وترد الى مصدرها. على ان هذه القاعدة لا تصح دائماً فقد يحب احدهم ولا يكون محبوباً او قد يكون محبوباً من غير ان يحب

ومهما يكن الامر فلا ريب في انه خير للانسان ان يحس احساس الحب بنفسه من ان يكون موضع ذلك الحب ولا يحسه. فمن ذلك نرى ان عاطفة الحب في الانسان ـ اي الحب الموجه الى غيره ـ اشد من حبه لذاته. ويتضح ذلك جلياً متى تنازعت العاطفتان في قلب واحد. فان حب الذات لا يلبث أن يضأل ويضمحل بازاء الحب الحقيقي. قال لاروشفوكو: «ان اعظم عجيبة يحدثها الحب ملاشاته حب الذات وابطاله طلب الظهور والتأثير»

أجل تلك عجيبة الحب التي تبلغ ارقى صورها متى أحبت المرأة حباً خالصاً شديداً . ولكن أليس هذا الحب نادراً ؟ وهل عاطفتها هذه أشد من عاطفة الرجل ؟ لا ريب عندي في ذلك فالحب محور حياتها . على ان حب الرجل قد يعادل حب المرأة قوة واخلاصاً ولكن حبه لا يشغل في حياته المكان الذي يشغله حبها في حياتها . فان له مطامح اخرى ولله در من قال : « الحب جزء من حياة الرجل ولكنه كل حياة المرأة » . فانها سواء كانت زوجة او والدة او اختاً انما تحيا بهذه العاطفة التي تستجمع كل عنايتها واهتمامها ، في حين ان للرجل مهام مختلفة جندية وعقلية ومشاغل تسترق فكرهُ وانتباهه بل قلبه ايضاً

حب الام

وتظهر هذه العاطفة في صور مختلفة ولكن أهمها بلا ريب ومحورها جميعاً حب المرأة لحبيبها ، وحبها لأولادها . على ان هذه العاطفة الاخيرة أعم في النساء وأشد . ولئن جاز وصف بعض النساء بانهن زوجات أصلح منهن أمهات فذلك انما يكون من قبيل الشذوذ لان الامومة هي غاية المرأة القصوى . اما الرجل فمن الطبيعي ان يكون زوجاً أفضل منه اباً ، ولا سيا اذا كانت امرأته في ربيع الشباب وأولاده لا يزالون في دور الطفولة . وفي معظم الحوادث نجد انعطاف المرأة الى صغارها أشد من انعطاف الرجل اليهم . فكأن الطبيعة خصتها بهذا الشعور العجيب نحوهم كما خصتها أيضاً بوظيفتها الوثيقة الارتباط بهم والتي لا يستطيع ان يقوم بها أحد سواها . فهي تحبهم بكل جوارحها ـ تحبهم حباً جماً خالصاً من كل شائبة ، ولا سيا في أولى حياتهم اذ يكونون في اشد الحاجة الى كنفها وعطفها . ذلك هو الحب الطاهر النبي لا تمازجه الانانية ولا يداخله غرض أو مصلحة . وما كنا لنعلم المبلغ الذي يبلغه الحب والتضحية في هذا العالم لولا قلوب الامهات

ولما كانت هذه العاطفة أسمى عواطف المرأة واظهرها فقد قيل انها كلما أحبت داخل حبها شيء من حب الام . أما العناصر التي يتألف منها ذلك الحب فاهمها الرفق والحنان نحو الطفل الضعيف المفتقر الى الاسعاف . على ان هذا الرفق وذلك الحنان يفيضان من قلب المرأة ويغمران كل ما كان ضعيفاً كالطفل مفتقراً مثله الى الاسعاف .

ولعل هذه الغريزة تلطف فيها ميلها الى الاعجاب بالقوة ــ وهو كما رأينا نتيجة ما هي فيه بحكم الاضطرار من الاعتماد على الرجل والاستناد على قوته . فتراها في الغالب رقيقة الشعور شديدة الحنو نحو من يسترحمها أو يسلم اليها امره . قالت مدام دي ريموزا : « لا بد لمن يبتغي منها خدمة ان يبين لها ما يترتب على عملها من السعادة للغير » . واذا اسعفت احداً لا تلبث ان تندفع في سعيها وتطلب المزيد . هذا هو كرم نفسها . فلئن اظهرت حباً لذلتها في ميدان المنافسة وطلب الظهور فانها ــ حين يطرق قلبها من باب الرحمة بدلاً من ان يلقى فيه الرعب والجزع ــ تتدفق غيرة ومحبة وانكاراً لنفسها. بل ان في حنان المرأة ورقة قلبها خطراً عليها عظيماً بيّنه غير واحد من الكتاب الاخلاقيين . فقد تجرها الشفقة والرأفة والحنان الى ما لا تحمد عقباه وتوقعها في الاشراك التي تكتنفها . وعلى كل حال فلا ريب في ان مشهد الضعيف متى كان في حاجة الى الاسعاف والاغاثة يؤثر في نفسها ويستهوي قلبها اكثر من مشهد القوي المنتصر . وقد يحملها ذلك المشهد على بذل مالها والتضحية باغراضها في سبيل من يستعطفها ويطلب معونتها . وليس ادل على تفوقها من هذا القبيل مما ذكره أحدهم في مقدمة كتاب عن العميان قال : « كثيراً ما تقترن فتاة بضيرة بضرير ولكن يندر ان يقترن البصير بضريرة . وما ذلك الا لان اقتراناً كهذا يستدعي تضحية لا يستطيعها معشر الرجال »

ولا حاجة للاسترسال في ايراد الامثلة المثبتة لانعطاف المرأة ورقة احساسها . فان هذه الصفة واضحة جلية في خلقها . وانما ينبغي لنا الآن ان نستطرد الى ذكر ما يترتب على هذا الميل فيها . فاول ما يترتب على ذلك كفاءتها لتربية الناشئة ولا سيما في أول ادوار التعليم ، وأهليتها لتهذيب الاولاد المتشردين ، بل اصلاح المجرمين منهم وتقويم نفوسهم . فلعطف المرأة وطول اناتها ودقة عنايتها شأن في كل ذلك ليس للرجل

ولا تقتصر هذه الغريزة على الاولاد والمرضى والمحتاجين بل تتناول كل المخلوقات ــ طالما لم يقم في سبيلها غريزة اخرى . فهي سر جاذبية المرأة وسر كياستها ولطافتها وحسن معاشرتها . ولذلك فالمرأة خير الروابط الاجتماعية وبها تُزهى المحافل والمجالس اذ يضطر الرجال في حضورها الى خلع رداء الخشونة والظهور بافضل ما لديهم من السجايا والمواهب . فكأن وظيفة النساء ــ حسب قول فولتير ــ هي تهذيب أخلاق الرجال

وليس من غرضي ان أذكر حوادث فردية يتجلى فيها عطف المرأة . وانما اقتصر

على مثل واحد شاهدته بنفسي في أحد المصايف : وذلك ان احدى السيدات رقت المساق التي تتحملها الخيل والحمير في تلك الجهة فكانت كما رأت حيواناً منها متعباً خائر القوى استأجرته لليوم التالي حتى يتاح له ان يستريح يوماً

المخاصمة

ولكن كيف نعلل مع رقة المرأة وعطفها وحنانها ما وصفها به غير واحد من القسوة والرداءة وحب الخصام والمشاحنة . فتلك صفات يكاد الرأي العام يكون مجمعاً عليها . بل ان الكتاب الاخلاقيين ايضاً لم يخففوا من صرامة هذا الوصف . قال فيفس : « لا تكون المرأة رقيقة الا مع من تحتاج اليه » . ولكن هذه التهمة باطلة . وانما يقال على الاجمال أن العواطف على انواعها تتعاقب في قلب المرأة . فقد تتملك فيه بالتتابع عاطفتان متباينتان وتبلغ كل منهما اقصى قوتها . وما ذلك الا لان المرأة كما قلنا ميالة بفطرتها الى التطرف . فالعاطفة التي تشغل قلبها لا تلبث أن تتضخم فيه وتقوى على سائر العواطف . وكما ان القسوة والرداءة والخصام قد تنشأ عن حب الذات وطلب الظهور فقد تنشأ ايضاً عن حب الغير متى تعرقل ذلك الحب . فليس من حقد أشد من ذلك الذي يتأتى عن الحب حين يهان او يهدد .

اما فيما يخص حب الخصام والمشاحنة فليس من العدل اتهام المرأة وحدها بذلك . اذ لا بد للتخاصم والتشاحن من اختلاف شخصين وقلما يكون الملوم أحدهما دون الآخر . وقد اتخذ الكثيرون هذه التهمة موضوعاً للهزء والسخرية . فمن ذلك الجملة التالية التي اقترح نقشها على قبر زوجين : « قف يا هذا وانظر اعجوبة : رجل وامرأة لا يتخاصمان » . على ان الرجل والمرأة في الحقيقة متساويان بكونهما أشد لطفاً وادباً في خارج منزلهما منهما في داخله . حتى ان كاتباً قال يصف رجلاً : « لقد كان لطيفاً بشوشاً . . . حتى في داره » اشارة الى ندرة ذلك . ولا بد من تقويم هذا الميل بالتربية الصالحة

بل اذا سلمنا بان ميل المرأة الى الخصام والمشاحنة أشد من ميل الرجل تيسر لنا تعليل ذلك بشبه ثوران يحدث في نفسها من جراء الضغط الذي تتحمله كأنها تنتقم لنفسها بحدتها واندفاعها

ولنذكر الآن الصفات التي تميز غريزة الانعطاف الفطرية في قلب المرأة

قصر المجال

أول ما يجب ذكره من ذلك ان المرأة تحفل بالاشخاص اكثر مما تحفل بالآراء والمبادئ . أي ان عنايتها تنصرف الى شخص أو اشخاص اكثر من انصرافها الى رأي او آراء . قالت مدام غيزو : « قلما تحفل معشر النساء بمجرى الحوادث العمومية » . ولعل جانباً من هذا الميل يرجع الى التربية والعادات المألوفة . والامر الراهن على كل حال هو أن المرأة قلما تشغل قلبها بشؤون عمومية كالتعاون الاجتماعي والاخاء البشري وحب الانسانية ونحو ذلك وانما تنصرف بكليتها الى افراد معلومين تبذل لهم كل ما في نفسها من عطف وعناية

قال الفونس دوده الروائي الفرنسي : « متى احبت المرأة لا ترى غير حبيبها . فكل ما فيها من رأفة وحنان ووداد وطيبة وتضحية يوجه اليه ـ واليه وحده » . على أن هذا القول لا يصح بحروفه الا اذا اردنا الحب بحصر المعنى ، أي العشق والغرام . ومع ذلك نجد عطف النساء بوجه الاجمال محصوراً في بعض الافراد : فكما انهن يلجأن بحكم الطبيعة الى عناية اشخاص معينين كذلك تتجه عنايتهن الى اشخاص معينين أيضاً . قال أحدهم يصف ما كان من تأثير صديق جاء يعزي صديقة له نزل بها مكروه : « ان ما فرَّج عن قلبها لم يكن ما سمعته من التعزية بل كان شخص المعزي نفسه . وبذلك اظهرت انها امرأة في الحقيقة » . ولهذا السبب لا تستطيع المرأة ان تحسن أو تصنع خيراً ما لم تحصر عنايتها في مجال ضيق محدود . وذلك ما يجعل عملها أشد تأثيراً

قال اميال : « المرأة التي تتلاشى في من تحبه انما تجاري وحي الغريزة وتستحق أن تسمى امرأة بالمعنى الحقيقي . لان تلك الملاشاة طبيعية في كل امرأة مجبولة من طينة جنسها . وبعكس ذلك الرجل الذي ينصرف بكليته الى تعبد امرأته ويقف حياته على خدمتها فانه نصف رجل فقط . ومن كان كذلك لم ينل احترام الناس بل لعل النساء ايضاً لا يحترمنه في سرهن . فالمرأة التي تحب حباً حقيقياً تود من صميم فؤادها أن تضيع ذاتيتها لتدغمها في ذاتية الرجل الذي اختاره قلبها حتى تزيده عظمة وقوة ونشاطاً .

وبذلك يقوم كل من الجنسين بوظيفته حق القيام : لان المرأة معدة للرجل والرجل معدٌّ للمجموع . فكأنها جعلت لواحد في حين انه جعل للجميع . ولن يجد كل منهما راحته وسعادته الا بمعرفة ذلك القانون والرضوخ لحكمه »

على ان في هذا الكلام الجميل شيئاً من المغالاة . فليس من رأيي انه مكتوب للمرأة أن تكون ملكاً خاصاً لرجل واحد وأن تلاشي ذاتيتها في محبته . فانما جعلت المرأة لمشاركة الرجل بالذات الانسانية جمعاء الجسمانية والعقلية والاجتماعية . بل ان الرجل العاقل العادل لا يتطلب هذا التكريس . فلئن تحتم على المرأة ان يكون حبها ـ بالمعنى المحصور ـ مقصوراً على زوجها فليس من الانصاف ان يكون كل ما لديها من عطف وحنان في حوزته وحده ، بل ينبغي ان يتناول ذلك بيئتها وبني جنسها . ولا بد من اصلاح التربية في هذا الشأن حتى تحس المرأة ارتباطها بما حولها وبمن حولها وتدرك واجبها نحو وطنها وقومها ، بدلاً من ان تقتصر وظيفتها على العناية بالمنزل كما هو الحال الى هذا اليوم . فان قلب المرأة يمتلئ في الغالب بحبها لاولادها واسرتها وفيما عدا ذلك يظل مقفلاً لا تنفذ اليه عاطفة اخرى

ولا غرابة في ان يشعر الرجل بحب الوطن اكثر مما تشعر به المرأة . فان له بوطنه علاقة مباشرة . أما المرأة فيندر ان تحس مثل ما يحس . وانما يقتصر احساسها من هذا القبيل على التعلق بالامكنة التي ألفتها منذ صغرها أو التي عاشت فيها زمناً طويلاً . وما هذا الا ضعف في خلقها ينبغي ملافاته بتوسيع الدائرة المشمولة بحبها وحنينها

ومثل ذلك يقال في حب الانسانية جمعاء . فبينا تجد المرأة سريعة العطف على فقير يقرع بابها أو تاعس يتألم أمامها قلما تفكر في الآلام والشرور العامة ـ كاحوال العمال مثلاً ـ بل ان سواد النساء لا يتأثرن الا مما يرينه رأي العين . وفيما سوى ذلك يتعذر عليهن تصور ما يلم بالطبقات السفلى من المصائب والبلايا ، في حين يكن هنيئات متمتعات برغد العيش وطيبه . ذلك ايضاً نقص في تربية البنات يجب الالتفات اليه والتحوط له

التقلب

وما عسى ان تقول الآن عن تقلب المرأة ؟ هل صحيح ما تتصف به عادة من التنقل والتلون ؟ لقد اكثر الكاتبون من اتهامها بهذه التهمة .. فقالوا : « ليس من

طبيعة المرأة ان تكون ثابتة » وقالوا عنها انها « كالريشة في مهب الريح . . . » . على اني لا أعتقد صحة ذلك مع تداوله على الألسنة . فاما تغير رغائب المرأة حين لا تحب حباً شديداً . وما ذلك الا نتيجة قعودها عن العمل وخلو فكرها من المشاغل – وهو ما تمكن ملافاته بتفتيح ذهنها وتعويدها النظر الى الشؤون الجدية – ولكنها متى أحبت الحب الصحيح تعلقت بكل قواها ولا ريب عندي في تفوقها اذ ذاك على الرجل من قبيل ثبات الحب وطهارته . فانما يبدو الملل والاهمال من جهة الرجل اولاً اما المرأة فحبها يتزايد كلما استرسلت فيه ويتضاعف مع ما تبذله في سبيله . قال اليبر : « ليس الشقاء عائقاً لحب المرأة متى احبت باخلاص » وقلما تجد امرأة يتغلب فيها كبرياؤها على عطفها ووِدادها لمن تحبه ويحبها

الصداقة

بقي ان نقول كلمة عن صفة ثالثة في خلق المرأة أجمع الناس على وصفها بها . فانها – بحسب الرأي الشائع – لم تجعل للصداقة الصحيحة . قال لابروير : « الرجال يفوقون النساء في ما يتعلق بالصداقة » وقال لاروشفوكو : « اذا ذاقت المرأة طعم الحب لم تستلذ الصداقة » . وقال مثل ذلك كثيرون – فضلاً عن الذين قالوا ما هو أشد منه

على اني أشك في صحة هذه الاقوال . وفي اعتقادي ان الصداقة المتينة الخالصة من كل شائبة نادرة بين الرجال والنساء على السواء . فليس في طبيعة المرأة ما يحول دون تلك العاطفة – وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فصداقة النساء خالية في الغالب من التعقل والرزانة والجرأة على النصح والتأنيب وهو ما تقتضيه الصداقة الحقة . ولكنها من جهة أخرى أشد حماسة وا كثر حمية واندفاعاً

وينحصر ما تتهم به المرأة من هذا القبيل في وجهين : الاول انها لا تصادق بنات جنسها لما يحول دون تلك المصادقة من الحسد والمنافسة . والثاني انها لا تصادق الرجال لان صداقتها لهم لا تلبث ان تتحول الى عاطفة أخرى هي عاطفة الحب

اما فيما يخص التهمة الاولى فاني أسلم بان الصداقة الحقيقية نادرة بين النساء – وان بلغت بين الفتيات احياناً مبلغاً عظيماً ، فانها لا تلبث ان تضمحل وتتلاشى بعد الزواج اذ تشغل قلوبهن عواطف أخرى . ثم ان الصداقة بين النساء سطحية في الغالب ولذلك

قال بول بورجه الروائي الفرنسي : « تختلف صداقة النساء عن صداقة الرجال بان هذه الاخيرة لا تقوم الا بالثقة المتبادلة في حين ان الاولى لا تحتم تلك الثقة . فالصديقة لا تصدق دائماً ما تقوله لها صديقتها . . . على ان ما بينهما من التحذر المستديم لا يمنعها من تبادل الود والانعطاف » . ومع ذلك فتصادق النساء ليس محالاً رغم العقبات التي تحول دونه

قال ديدرو : « قلما تتحاب النساء ــ الا انهن مرتبطات برابطة خفية تحملهن على الذود عن مصالحهن المشتركة . فقد تكره الواحدة زميلة لها وتتصدى مع ذلك للدفاع عنها » وقد دعى شوبنهور تلك الرابطة الجنسية « ماسونية النساء » ولعل ذلك دليل على انهن يفهمن معنى التعاون والتكاتف

بل أعتقد ان الصداقة ممكنة بين رجل وامرأة . وليس اللوم كله على النساء اذا ندر ذلك . فلا ريب عندي في ان المرأة تستطيع في بعض الاحوال مصادقة أشخاص معلومين . والامثلة على ذلك كثيرة

قال لابروبير : « اذا اجتمعت لدى المرأة الجميلة صفات الرجل الطيب كانت عشرتها ألذ ما في العالم اذ تجتمع فيها فضائل الجنسين »

ولئن أنكر البعض وجود تلك الدرة الثمينة فما ذلك الا لكونهم لم يعثروا عليها . وامثال هؤلاء خليقون ان نرثي لحالهم

الفصل الثامن

احساس المرأة (تتمة)

العواطف المركبة والعواطف السامية

لقد وصلنا الآن الى طبقة من العواطف يجوز لنا أن نسميها سامية لانها لا تحوم حول الاشخاص بل تتناول أموراً معنوية تتعلق بمنازع نفسية عالية كالشرف والعدل والحقيقة . فكيف تحس المرأة بإحساس الخير واحساس الحق واحساس الجمال والاحساس الديني ؟ ليس من ينكر وجود هذه المنازع السامية في قلب المرأة فانه يحوي سجايا البشر الاساسية . ولكن يدعي البعض انها ليست واضحة جلية في المرأة ولنها تضأل في الغالب وتتلاشى بجانب اميالها الغريزية المختلفة التي ذكرناها فيما تقدم . فالمرأة في نظرهم شديدة الاهواء يتعذر عليها أن تكون منصفة ، كما انها كثيرة الطيش لا يمكن ائتمانها على سر ذي شأن . وقس على ذلك

* * *

وقبل خوض هذا المبحث يجدر بنا أن نذكر طبقة من العواطف المركبة الناشئة عن تفاعل الاميال التي ذكرناها في الفصلين السابقين . فقد درسنا نوعين من الاميال : ما يرجع منها الى الذات وما يرجع الى الغير . فهذه الاميال تتركب احياناً وتتفاعل بصور مختلفة فتشغل الجانب الاكبر من حياة المرأة ولا تترك لها مجالاً للتمتع بالمشاعر السامية التي هي موضوع هذا الفصل . وسندرس اولاً خلقين مركبين من عناصر انانية وعناصر غيرية معاً ، ثم نعكف على درس العواطف السامية

الغيرة

الغيرة مزيج من حب الذات وحب الغير . وتكاد تكون هذه العاطفة من مميزات النساء . قال احدهم : « تغار المرأة على كل شيء : على زوجها ، وعلى اولادها تزوجوا او لم يتزوجوا ، وعلى صديقاتها الخ . . . ومما يؤجج نار الغيرة في قلبها الحساس خيالها الذي يخلق لها في بعض الاحيان عالماً وهمياً لا وجود له الا في مخيلتها »

ولا ريب ان الغيرة تسمم القلب وتجعله رديئاً قاسياً . فاذا تمكنت من المرأة ـ مهما تكن طيبة بفطرتها ـ جعلتها مغمومة حزينة وولدت فيها من مرارة الحقد والضغينة ومن الرغبة في الانتقام والاستظهار ما يملأ قلبها وحياتها

وقد تنشأ الغيرة في المرأة عن حبها لذاتها ـ حين تزدرى ولا يحفل بها . ولكنها لو لم تتأتَّ الا عن حب الذات لم تكن على ما فيها من الشدة والزخم ، كما انها لو لم تنشأ الا عن الحب لم تكن بتلك المرارة . فتركبها من هذه العناصر معاً هو الذي يظهرها لنا بذلك المظهر الشديد الاليم

الثرثرة

لقد شبه الكتاب المقدس لسان المرأة الغيورة بالسوط . على أن لثرثرة النساء ـ مع ما فيها من الفضولية والمداخلة في شؤون الناس وافشاء اسرارهم الخ . . ـ اسباباً اخرى غير الغيرة . فلها نتيجة ما استكشفناه من اخلاق المرأة فيما تقدم ـ كحبها للظهور الذي يحملها على الكلام لتلفت اليها الأنظار ، ومؤانستها الفطرية التي تدفعها الى ملاطفة من حولها ، وعطفها الغريزي الذي يحبب اليها المعاشرة . اضف الى ذلك نوع معيشتها على ممر الاجيال ـ تلك المعيشة الساكنة الخالية من المشاغل الجدية والاعمال الخطيرة ، المقصورة في الغالب على مهام يدوية تشغل الاصابع والايدي وتترك المجال واسعاً للخيال واللسان . ومن الطبيعي أن تزيد رغبة النساء في استطلاع الحوادث اذا احجمنا عن اخبارهن بما يجري ، وان يعنين بالامور التافهة اذا لم تشركهن في الامور الخطيرة . ولو بحثنا بانصاف وجدنا في تلك الاسباب منشأ ما توصف به المرأة من حدة اللسان وكثرة الكلام ـ وهو ما لا سبيل الى انكاره

على ان الرجل الخالي العمل ايضاً لا يلبث ان يصبح نظير المرأة في الثرثرة وحب الاستطلاع ـ بل انه كذلك بطبيعته الى حد معلوم ، لانه مثلها يحب الظهور والمؤانسة . ولكنه لا يعلق على الكلام تلك الاهمية التي له عندها . ولعله أميل منها الى افشاء شؤونه الخاصة تحدثاً بمآثره ، في حين انه من الجهة الاخرى أحرص منها على شؤون غيره . اما المرأة فلها أقدر على حفظ أسرارها وأميل الى افشاء اسرار الغير . ثم ان الرجال مهما احبوا الثرثرة يقفون فيها عند حدّ محدود ومهما يكن من تطلعهم الى

استكشاف الامور يندر ان يعنوا بشيء ليس له صفة عامة اوليس له علاقة ببعض الاشغال

وتكاد تجمع الآراء على ثرثرة النساء وعجزهن عن حفظ الاسرار . قال اسكندر دوماس : « ان الله لم يمنح المرأة ذقناً لانها لاتستطيع السكوت اثناء حلاقتها » وقال اراسموس : « في مضمار براعة اللسان كل سبعة رجال يعادلون امرأة واحدة » .

ولا بد لنا في درس هذا الموضوع من التمييز بين شيئين : قدر الكلام ونوعه

اما القدر فان كثرته قرينة قلة التفكير في الغالب . قال فناون : « معظم النساء يقلن اشياء قليلة في كلمات كثيرة » . على ان اندفاعهن في هذا الميدان وما يظهرنه من الفصاحة والبيان قد ينشأ عن عاطفة كريمة كالرحمة والشفقة فيسترسلن في الكلام بحماسة وكأن حماستهن تكسبهن مهارة و بلاغة . وكثيراً ما تحوم ثرثرة النساء على مواضيع لا فائدة فيها ولا ضرر

واما نوع الكلام فمرتبط بقدره ارتباطاً شديداً ، لان الكلام يقل قيمة في الغالب كلما زادت كميته . اذ لا غنى لمن يميل الى كثرة الكلام عن ايجاد مواضيع يدور عليها كلامه فيجنح مضطراً الى المسائل التافهة التي تضحك وتسلي . بل قد يلجأ الى النميمة والهذر وكشف الاستار واباحة الاسرار ، . فيتحول كلامه اذ ذاك الى رذيلة قبيحة ولا سيما اذا تمكنت فيه تلك الخصلة مع التكرار والتمرين . ولا غرابة ان يكون في النساء ضعف من هذا القبيل . على انهن – كما ذكرنا – شديدات الاحتفاظ باسرارهن الخاصة . قال لابرويير : « المرأة اقدر على حفظ سرها من قدرتها على حفظ سر غيرها » . الا انه من السهل احياناً استطلاع مكنونات قلبها من اقوالها وحركاتها

والجملة ان الثرثرة ضعف في المرأة حتى اذا لم تداخلها الرداءة والنميمة . فان لم تنل من كرامة الغير نالت من كرامتها هي . لان الكلام اذا خرج من فمنا كان حاكماً علينا

* * *

على ان الغيرة والثرثرة ليستا معدومتين من خلق الرجل . ولذا فانهما لا يحولان دون شعور المرأة باسمى ما لدى الانسانية من المشاعر. على ان نفراً من الكتاب انكروا عليها ذلك فلنفحص حججهم ونمحصها

الشرف

أما فيما يتعلق بشرف المرأة – وما هو الا حياؤها وحشمتها – فليس من ينكر

هذه العاطفة فيها . ولكن البعض ينسبونها الى اميال سفلى . منهم لاروشفوكو فقد ذهب الى ان حياء المرأة اما ان يتأتى عن خوفها من الرأي العام - قال : « ليس حياء المرأة في كثير من الاحيان الا حرصاً على سمعتها وراحتها » - او ان يكون من قبيل الغنج والدلال - قال : « كأن حياء المرأة زينة او خضاب تزيد به جمالها » - أو انه برودة فطرية في المزاج - قال : « لا تكون صرامة المرأة تامة الا اذا كرهت » . أما شوبنهور عدو المرأة اللدود فقد تراءى له ان بين النساء اتفاقاً سرياً من هذا القبيل غايته رفع قيمتهن وحمل الرجل على التزوج بهن . ومن ثمّ - في نظره - تنشأ قساوتهن ازاء من يسلمن اليه انفسهن بلا شرط ولا قيد

لا ننكر ان في هذه الاقوال شيئاً من الحقيقة - ولا سيما فيما يتعلق بخوف المرأة من الرأي العام . فان ذلك الرأي يحكم عليها اكثر مما يحكم على الرجل لكونها اقل منه استقلالاً ودونه عملاً بنفسها ولنفسها . فهذا العامل خطير الشأن في حياتها . قال فناون: « الخوف اضمن حافظ لفضيلة النساء » . فينبغي اذاً ان يحسب حساب هذا الشعور وان يستخدم في صيانة المرأة من الاخطار المحدقة بها . فلئن تمكن الرجل احياناً من خلع نير العادات المألوفة والتحرر من قيود الرأي العام فليس بمستحسن من المرأة - في حالتها الحاضرة - ان تنتحي هذا النحو وتضرب عرض الحائط بما يقال وما يعمل

على انه وان يكن لهذا العامل شأن لا يستهان به فلا ينبغي ان يكون قانون المرأة وحافظها الوحيد . ولا بد لها ولنا من الاعتماد قبل كل شيء على احترامها لنفسها وحرصها على كرامتها

الواجب

ولندرس الان اسمى عاطفة في الانسان - عاطفة الواجب . فما شأنها في حياة المرأة ؟ ان المتداول من الآراء في هذا الشأن يُلخص في قولنا ان تلك العاطفة في ذاتها باردة ناشفة وانه ليس لها من الحرارة والجاذبية ما يستهوي قلب المرأة . على أن هذا الحكم لا يصح الا اذا صح أن احساس الواجب صورة ذهنيـــة مجردة من كل رهجة وبهاء . ولكن الله له الحمد لم يفصل بين العقل والقلب : فعاطفة الواجب ترتكز عليهما معاً اذ لا بد من معرفة الواجب ومن محبته ايضاً . ومع ذلك لا يسعنا

الا التسليم بان القسط الذي للقلب أزيد في المرأة منه في الرجل وان الواجب لا يتضح لها جلياً الا اذا مس قلبها . فقد يتعذر عليها القيام به ما لم يطرق ذلك الباب . بل قد تغضي عنه اذا صدم عواطفها . اما اذا وافق هوى من قلبها فسرعان ما تلبيه وشتان اذ ذاك بينها وبين الرجل ! وبعبارة أخرى حين يقضي الواجب بالعدل والانصاف نجد الرجل اقدر من المرأة على القيام به ولكنه حين يستدعي انكار الذات والتضحية بالنفس نجدها متفوقة عليه اذ تستسهل تأدية ما يفرض عليها بل تستلذه وتتعشقه

ولست اقصد من ذلك ان الاحسان فضيلتها الخاصة وان العدل فضيلة الرجل وحده . فعلى كل من الرجل والمرأة ان يتحلى بهاتين الفضيلتين . وانما نستخلص مما تقدم ان في المرأة اهلية لبلوغ اسمى مراتب الرقي المعنوي ولا سيما متى قضى الواجب بارغام النفس واذلالها

ولنبين الآن المميزات الخاصة بالمرأة من هذا القبيل حتى نقارن بينها وبين الرجل. فما هو اساس سلوكها ؟ وما هي مقومات سيرتها ؟

سلوك المرأة

قال لابرويير : « ليس للمرأة مبادئ تعمل بموجبها . فانها لا تسترشد الا قلبها ولا تستهدي الا بوحي الذين تحبهم ». ان هذا الحكم صارم في ظاهره ولكنه في الحقيقة انما يعني ان المرأة اقل تأملاً من الرجل في اختيار المسلك الذي تسلكه ، وهو امرٌ لا ريب في صحته لانها تعودت أن تكون مقودة لا ان تقود نفسها ولان ما فيها من فضيلة يصدر في الغالب عن غريزتها وفطرتها لا عن عقلها وحكمتها — حتى لقد قال احدهم : « لا تفكر المرأة في اصول الواجب الا حين تريد ان تتحرر من سلطانه او حين تلتمس مبرراً لانتهاك حرمته »

فنرى من ذلك ان الفرق بين الجنسين في هذا الشأن هو فرق في التربية والتهذيب وليس فرقاً أساسياً يلحق سجاياهما الفطرية . على ان مسافة الخلف بينهما قد بعدت مع مرور الزمن حتى أصبح لسلوك كل منهما صورة خاصة تختلف عن صورة الآخر : فسلوك المرأة غريزي في معظم الاحيان وقلما يستند الى قضية عقلية

أو قاعدة منطقية . قال توماس : « يندر ان تحكم المرأة بلا تحيز ـ كما يحكم القانون ـ فانها لا تصدر حكمها الا بعد ان تتبين الشخص المطلوب للمحاكمة » . والجملة ان عواطف المرأة تحول فيها دون صدق النظر وصحة الحكم . وهذا أمر يتوقعه كل من درس حالتها في العصور السالفة وما كان من خضوعها للرجل وسعيها المتواصل لنيل الحظوة في عينيه ـ وهو ما أفقدها شخصيتها وجعلها عاجزة عن ادراك معنى الحرية الحقيقية والمنفعة العمومية ونحو ذلك من المدركات الذهنية التي تمكنت من نفس الرجل . فسلوك المرأة موقوف على ما يتراءى لها أو ما يتراءى لقلبها . فقد تؤثر المسلك الجذاب على المسلك الحق « لان الكياسة عندها مقدمة على الصواب » كما قال ميشله . بل ان عاطفة الامومة نفسها كثيراً ما تحيد عن جادة العدل والانصاف فتفضل الام ولداً من أولادها على سائر اخوته . وهي في الغالب تميز أضعفهم ـ كأن الطبيعة تقوي فيها الشعور الامي ازاء أحوج أولادها الى عنايتها (أسوة بسائر الحيوانات فانك لا تجد فيها رابطة وثيقة تربط الام باولادها الا في دور الارضاع)

أما فيما يخص الحياة الاجتماعية فترى المرأة غالباً شديدة التمسك بالاصطلاحات والعادات المألوفة . وقلما تستطيع التنزل عنها بل قلما تميز بين ما هو معمول به وما يجب ان يكون معمولاً به . وفي تمسكها هذا دليل على استعدادها الفطري للقيام بالواجب أو بما تظنه واجباً ، كما انه دليل على افتقارها الى تعديل ادراكها لماهية ذلك الواجب

ومن الصفات النادرة بين النساء الاستقامة ـ أي توافق القول والعمل . فتراهن في الغالب كثيرات المواربة والمداجاة ، ولا سيما متى شئن التخلص من فرض غير مستحب اليهن . قال ديدرو : « كأنهن يعملن بمذهب ما كيافلي (وهو المذهب القائل بان الغاية تبرر الواسطة) فحيث يحول دون اقدام الرجل حاجز منيع لا ترى المرأة الا نسيجاً عنكبوتياً » . وقال فنلون نحو ذلك اذ بيّن تصنع المرأة وقدرتها على الاختلاق والمداهنة وموهبتها العجيبة التي تسهل عليها تمثيل الدور الذي تود تمثيله . على اننا قد رأينا سبب ذلك وعللنا انه ناشىء عن حالة المرأة التاريخية وضعفها الطبيعي . قال روسو : « المكر موهبة الجنس الضعيف وكأنه به يستعيض من ضعفه وقصوره » . وهو أيضاً نتيجة ما تحملته المرأة من الحجر والحبس على ممر الاجيال . الا اننا نجد ـ حتى بين المستنيرات المستقلات بالرأي ـ ميلاً الى الغش والخدع وتدبير الحيل والمكايد . وقد

قال أحدهم ان من كل عشر رسالات ترسل بلا امضاء بقصد النميمة والايقاع تجد ثمانياً أو تسعاً من النساء . الا اننا لا ندري مبلغ هذا القول من الصحة فليس من السهل عمل احصاء في هذا الشأن . وعلى كل حال فواجب التربية واضح جلي من هذا القبيل

غريزة الحق

وما عسى ان تقول عن تلك الغريزة السامية القريبة من غريزة الواجب ــ نعني غريزة الحق ؟ كثيراً ما تكون تلك الغريزة ضعيفة في النساء فالواجب على التربية ان تقويها لسببين : أولاً لجمالها في حد ذاتها وثانياً لانها خير حافظ لشرف المرأة وافضل معين لها على القيام بفروضها . فان الكذب يمهد الطريق لسائر الرذائل

ولا يسعنا انكار ما تتهم به النساء من هذا القبيل انكاراً باتاً . قال لابروير : « من السهل على المرأة ان تقول ما لا تحسه . » ورأى كَنْت الفيلسوف الالماني أنه ينبغي للآباء ان يسهروا على اولادهم كي تثبت فيهم سجية الصدق . لان الامهات قلما يكترثن لها . وقد كان من اشتهار النساء بالكذب في القرون الوسطى انهن منعن عن تأدية الشهادة امام القضاء . ولعل آثار ذلك التحذر باقية الى اليوم في منع المرأة عن القيام ببعض الاعمال القانونية

وخليق بنا الآن أن نفحص هذه التهمة عن كثب بعد طرح كل تأثير مكتسب من الوراثة والبيئة . فهل حقيقيٌّ ان المرأة دون الرجل من هذا القبيل ؟ لا بد لنا من التسليم بعجزها عن ادراك بعض الحقائق ولا سيما اذا كان لها مساس بمصلحتها . وقد خبرت ذلك بنفسي فيما يتعلق باباحة الطلاق . فان النساء اللواتي حدثتهن عن هذا الموضوع اظهرن على العموم اشمئزازاً عظيماً كأنهن عددن اباحة الطلاق تهديداً لهن في سعادتهن . ولم اجد واحدة بينهن خاضت هذا المبحث بروية واعتدال . وعبثاً حاولت اقناعهن بان مبدأ الطلاق ـ وان يكن قبيحاً مرذولاً من الوجهة الاخلاقية ــ الا انه ضروري للهيئة الاجتماعية في بعض الاحوال الاستثنائية . وقد حدث لسيدة من هؤلاء السيدات ــ وكانت اشدهن مقاومة لاباحة الطلاق ــ ان ابنتها وقعت في حالة اضطرتها الى طلب الطلاق فادركت الام اذ ذاك ما لم تكن لتدركه لو لا ان خبرت بنفسها ذلك الموقف الحرج

على اننا اذا فحصنا قلوب الرجال هل نجدها يا ترى اقرب من قلوب النساء الى الحقيقة والصدق او على الاقل هل نجد بين الجهتين فرقاً جديراً بالذكر . هذا ما اشك فيه . وفي الغالب ان كذب المرأة اقل ضرراً من كذب الرجل . على ان ذلك لا يمنعنا من التحوط لهذه الرذيلة في المرأة ولا سيما انها مكتسبة من البيئة والتربية كما ذكرنا . وهذا ما يجعل اقتلاعها سهلاً . وقد تقدمت نساء كثيرات في هذا المضمار . ولا بد لي من الاعتراف في هذا المقام بان اصدق شخص أعرفه وابعد الناس في علمي عن المداهنة والمداجاة ليس رجلاً بل امرأة

احساس الجمال

لا ريب في ان هذا الاحساس مغروس في فطرة المرأة ــ بل لعله اعم بين النساء واعظم شأناً في حياتهن . فالمرأة تؤثر الحسن الجميل عادةً على النافع المفيد . ومهما يكن الامر فلا اقل من التسليم لها بأنها تقضي جانباً كبيراً من يومها وهي تفكر فيما يجعلها حسنة جميلة . ولذا فقد قال كَنْت انه يحق للنساء أن يطلق عليهن اسم « الجنس الجميل »

على ان هذا الاحساس قلما يكون فيهن قرين الابتكار والابتداع بل نجده في معظم الاحيان خاضعاً « للمودة » والعادات المألوفة والاصطلاحات الجارية ــ حتى لقد قال شامفور ان المرأة لا تحب الرجل الا بعد ان تقف على ما يراه فيه الناس لا ما تراه هي فيه . ولئن كان في هذا القول شيء من الهزؤ فالحقيقة هي ان المرأة قلما تخرج عن الآراء المتعارفة في تصورها للجمال والجميل . وقد تفضل الظرف والرشاقة على الجمال السامي اذا لم يكن مألوفاً ، كما انها في كتب الادب تفضل الخفيف اللطيف على الجدي العويص . وهي تلميذة بارعة سهلة التدريب في الفنون الجميلة ولكن يندر ان تسمو فيها الى مرتبة الابداع ، كما يندر أن تهجر الاساليب المألوفة والسبل المطروقة . بل انها ــ حتى في فنون الزينة واللباس ــ دون الرجل ابتكاراً واستنباطاً

وقلما تفصل المرأة بين ما هو حسن في ذاته وما هو مستحسن عند الناس . فقد تتعامى عما في رجل من الادب الصحيح والخلق المتين اذا لم يكن انيقاً في سلوكه ظريفاً في حديثه رشيقاً في حركاته . ولقد عرفت سيدة نقمت نقماً شديداً على رجل وامرأته ــ وهما من خيرة الناس وأسماهم خلقاً ــ لانهما دخلا صالونها ويدها مشبوكة في يده وهو ما عدته السيدة جرماً فظيعاً وزلة لا تغتفر

أما من حيث الانتاج الفني فقد اصبح للنساء قسط لا يستهان به من الآثار الفنية المختلفة . على ان ذلك القسط أقل من قسط الرجل بكثير . ولعل السبب الاكبر في ذلك هو تفاوتهما في التربية الفنية فان ابواب تلك التربية لا تزال ضيقة في وجه النساء ولم يتح لهن دخولها الا منذ زمن قريب . وما دامت الفرصة غير متساوية للجهتين فمعرفة الفرق الذي يفصلها من هذا القبيل متعذرة

ولكن مما لا ريب فيه ان النساء أخذن يقتفين آثار الرجال في مضمار الفنون . وقد برع منهن غير واحدة في التصوير الا انهن في الغالب لا يبدعن الا في ضروب التصوير الخفيف كتصوير الطبيعة والزهور والتصوير بالماء والتصوير الدقيق المسمى منياتور (miniature) . ثم انهن يُجدن في الجزئيات والتفاصيل على الغالب اكثر من اجادتهن في تأدية منظر عمومي وصورة اجمالية . فكأن براعتهن تمتاز بالرشاقة لا بالقوة . هذا حكم شامل يصح تطبيقه على جميع الفنون الجميلة ـ وان يكن له بعض الشواذ . وانه صحيح أيضاً فيما يخص الآثار الادبية . فالالياذة والاوذيسة وهملت ونحوها ليست من مآثر النساء ، كما ان الصور والتماثيل الشهيرة في العالم ليست من صنعهن

والذي نستخلصه من كل ذلك ان البراعة الفنية في المرأة ضيقة المجال قصيرة المدى . ولكن ذلك لا يحول دون صقلها وتهذيبها . ولعلها بالصقل والتهذيب تسمو الى المرتبة التي بلغها الرجل

الشعور الديني

أما فيما يخص الشعور الديني فقد أجمع الناس على بروزه فيها وتملكه من قلبها . ولكن شعورها هذا يحفل بالمحسوسات اكثر من حفله بالمعنويات . بل قد تتمسك المرأة بصور ورسوم ليست من روح الدين في شيء . وانما اخلاصها وصدق نيتها يغتفران لها تطرفها من هذا القبيل ـ وانه لجدير بنا ان نحترم كل ما كان فيه سلوى وتعزية للقلب البشري . فالدين ملجأ المرأة الامين الذي تجنح اليه ساعة الضيق بما فيها من ضعف وخوف وقلق

والمرأة في الغالب تتقبل قضايا الايمان من غير شك أو تردد بل تتعلق فيها بكل جوارحها مدفوعة بغريزة البقاء . اما الرجل فان ايمانه كثيرا ما يقترن بما يمازجه من

التفكير والتأمل والتفلسف . قال رينان : « تقاوم النساء على الدوام كل تمحيص وانتقاد في المسائل الدينية . فلهن لا يصدقننا في هذا الشأن مهما نقل وتبجح . وهذا ما يجب ان نسرّ له . . . »

ان هذا الشعور ذو شأن خطير في حياة المرأة . بل انه قوة عظيمة ينبغي تطهيرها وتخليصها من الشوائب التي تخالطها ، حتى يتيسر استخدامها لفائدة المرأة ولفائدة الجمعية البشرية . والمرأة متدينة بفطرتها ولا بد لها من التمسك بايمان مهما يكن نوعه ، بل انها عندما تحب تعد حبيبها بمنزلة دين لها فيمازج حبها شيء من الورع والتعبد . وان لمن المحال اقتلاع هذه الغريزة من قلبها . فنرى من ذلك ان التربية الدينية ضرورية للبنات على الخصوص . وليس أسعد في العالم من القلب المؤمن المتيقن من غرض يسعى اليه في غير هذا العالم

الفصل التاسع

ذكاء المرأة

المرأة بطبيعتها شديدة الذكاء . وقد ذكرنا قول احدى الكاتبات الفرنسيات ان أندر ما في فرنسا امرأة غشيمة . على ان المرأة بوجه الاجمال ذكية في كل مكان وليس في فرنسا فقط . فاننا اذا جردنا الرجل من التفوق الذي اكتسبه بتربيته جاز لنا القول بان المرأة ليست دونه في القدرة العقلية باعتبار نوع معيشتها وما لها من الحاجات الخاصة بها . بل قد يجوز القول بانها تفوقه في تدبير الامور المألوفة التي تمسهما معاً

ففي طبقات العامة ولا سيما بين أهل المزارع والحقول كثيراً ما تكون المرأة وحدها ربة الدار ومديرة المنزل (وان لم تظهر بهذا المظهر تحاشياً لخدش احساس زوجها) . فانها أحذق من الرجل في الغالب وأبرع منه واكثر توفيراً وترتيباً . وهي أيضاً أشد منه اهتماماً بالغد وتحوطاً له ، كما انها اكثر عناية بمستقبل أولادها . واذا ألمّ بالدار مكروه عرفت كيف تخفف وطأته . ثم انها أمهر من الرجل في التخلص من المشاكل التي تعرض لها ولذويها

سلْ طبيباً من اطباء الريف عمن اقدر على افادته عند ما يستفهم عن حالة عليل . فكثيراً ما يعجز الرجل عن تقديم البيان المطلوب فيلجأ الطبيب الى المرأة فتعلمه بما يريد — حتى اذا كان المريض زوجها نفسه . الا انها تسترسل احياناً في بيانها وايضاحها فتقول غير المطلوب . ولكن الطبيب اذا كان ماهراً عرف كيف يستخلص المفيد من غير المفيد

أما في الطبقات المتوسطة ولا سيما بين اهل المدن المعتدلي الحال (bourgeois) فالرجل صاحب التفوق العقلي في الغالب . ولكن ذلك التفوق انما يرجع الى تهذيبه وتثقيفه وقلما يتعدى حرفته او مهنته . فكثيرون هم الرجال الذين يصح فيهم قول أحدهم عن بعض العلماء : « انه يتعثر حالما يخرج من مكتبه »

وأما الطبقات العالية فكثيراً ما تتفوق فيها المرأة وتبدي من البراعة والذكاء

ما يقصر عنه الرجل ولا سيما انه في معظم الاحيان ينهمك باللذات الحسية والالعاب والملاهي وغير ذلك

على أن ما ذكرناه فيما تقدم من ذكاء المرأة انما يراد به الذكاء بمعناه العام ، أي القدرة على فهم الحوادث والاشياء التي تعرض للانسان في كل يوم . اما الذكاء بحصر المعنى فيفيد اكثر من ذلك اذ يشمل موهبة التأمل بوساعة ودقة ، والتفكير بنظام وترتيب ، وقوة النقد والتمحيص لما هو متداول من الحقائق ، والتدرج الى الاحاطة بالمدركات البشرية السامية . فهل في المرأة كفاءة لكل ذلك ؟ هذا ما نود الاجابة عنه الآن . على انه يجدر بنا قبل ذلك أن نتبين ذكاءها العمومي وان نقف على مميزاته بشيء من التدقيق

مميزات ذكاء المرأة

يجوز أن يوصف ذكاء المرأة على العموم بكونه « وثاباً » . فانه قليل التأمل سريع الوصول الى النتائج . قالت سيدة تصف ذكاء جنسها : « قلما نلقن ما نعلمه بل اننا نحزره حزراً » — وهو قول يحوي حقيقتين معاً : فذكاء المرأة اولاً اشبه بالتكهن والتنبوء . ولعله كذلك ثانياً لانّ المرأة لم تلقن ما لديها من المعلومات ، بل كأن قلة التعليم اذكت فيها ذلك الاقتدار الغريزي لاحتياجها اليه . وقد يكون هذا الاقتدار ايضاً نتيجة لين المرأة الفطري ومرونتها الطبيعية : فلها مدفوعة بحكم حالتها الى استكشاف الاحساسات واستبانة الخواطر من نظرة او لمحة او اشارة . قال احدهم : « لدى المرأة فطنة بديهية وحذاقة فطرية تقتدحان النتائج بسرعة ويقين معاً وذلك ناشئ عن اضطرارها المستديم الى ملاحظة الرجل ومراقبة نظيراتها » وقال روسو : « الرجل يسبق المرأة في التفلسف على القلب البشري ولكنها أحذق منه في استبانة ما تكنه قلوب الرجال : فالمرأة تلاحظ والرجل يتفلسف »

وبعبارة أخرى كأن في المرأة « نوراً طبيعياً » يضيء كل ما يعرض أمامها من الحوادث والمشاكل فيعينها في الحال على استجلاء غوامضها . فبينا يكون الرجل مستغرقاً في فحص احدى المسائل تتوصل المرأة في لمحة بصر الى النتيجة المطلوبة

على ان هذه القدرة العجيبة انما تصدر عن القلب . قال بول بورجه : « يمكن ادخال أي شيء الى عقل المرأة عن طريق عواطفها » . وفي هذا القول حقيقة جديرة بالتأمل

والاعتبار. فلا ريب في ان قلب المرأة يزيدها فطنةً ونباهة ـ وقد قيل ان القلب احكاماً غير احكام العقل كما ان له قياساً غير القياس العقلي المعروف . قال لامارتين : « ان الله وضع عبقرية المرأة في قلبها » فمنه تصدر براعتها وصدق نظرها وقوة حجتها . ولله در فولتير القائل : « ان كل فلسفة الرجال لا تعادل عاطفة واحدة من عواطف المرأة » فحرارة العاطفة تتخلل أقوالها وأعمالها جميعاً

نقص ذكاء المرأة

ولكن تلك الحرارة ـ التي هي مرجع ما في النساء من البراعة والسلطان والقدرة على اقناع الرجل واستمالته ـ قد تشوب ما بين من العقل والفطنة والذكاء . فان العاطفة بطبيعتها تحول دون صفاء الذهن وانصافه اذ تدفع العقل الى الحكم من غير تأمل وتمحيص . قالت مدام نكردى سوسور : « لا يحكم العقل بالعدل الا في حالة الهدوء . أما اذا كان مضطرباً فحكمه يخرج مشوشاً » . والنساء ـ كما لا يخفى ـ يندر ان يكن هادئات ساكنات ولا سيما في سن الشباب . وهذا ما يحملنا على التريب في ما يصدرنه من الاحكام على ما يحبينه وما لا يحبينه . فلا بد من رزانة العقل ومتانة الخلق للتسلط على الاهواء والعواطف . وانه لمن الصعب على أصحاب النفوس الحساسة ان يلازموا طريق العدل والصواب ولا يحيدوا عنه . قالت الكاتبة المعروفة باسم جورج إليوت : « ... هكذا يكون أصحاب الطبائع الحساسة : فليست أفكارهم الا اظلالاً لعواطفهم » . وحاصل القول ان الذي ينقص ذكاء النساء على العموم انما هو الركون الى « الواقع » والاعتماد عليه

وبقطع النظر عما للعواطف من التأثير في احكام المرأة تجد فيها عوامل أخرى تحول دون إصابة الرأي وصدق النظر . فمن ذلك انها كثيرة الملاحظة للدقائق والجزئيات ، وهذا ما يجعل من الصعب عليها أن تدرك الاشياء بمجملها . فقد قيل عنها « أن تمييزها للمنازل يحجب عنها منظر المدينة كما ان مشهد الاشجار يحول دون تصورها للغابة » . فلئن تيسر لها احياناً ان تدرك في لحظة ما يتعذر على الرجل ان يميزه او ما يبذل زمناً طويلاً في تمييزه فذلك انما يكون بوحي الغريزة ومن غير تأمل وتمحيص . فكأن فطنتها قصيرة المدى قليلة العمق . وبعبارة أخرى انها سريعة الفهم اكثر مما هي جيدته . ولذا يجوز

لنا في الغالب أن نصف ذكاءها بكونه سطحياً . قال شوبنهور : « المرأة مصابة بقصر نظر ذهني وهو ما يجعلها جيدة التمييز للامور القريبة فقط ، في حين أن مدى بصرها محدود لا يتناول ما يجاوز بعداً معلوماً »

لا ريب في أن هذه الاوصاف ـ حسنها وسيئها ـ منطبقة على الذكاء النسائي . فقد اتفق الملاحظون جميعاً في هذا الشأن . ولا يخفى ان الفضائل والنقائص مترابطة على الدوام أي ان ما يعد فضيلة ممدوحة من جهة قد يكون نقيصة مذمومة من جهة أخرى. فكأن لهذه المسئلة وجهين . على ان الاختلاف الاساسي بين الملاحظين هو ان بعضهم استرسل في بيان الوجه الممدوح ، في حين أن البعض الآخر توسع في الوجه المذموم . وفي الواقع ان الوجه الواحد يبرز تارة في خلق المرأة وتارة يبرز الوجه الآخر . قالت مدام دي ريموزا : « ينقصنا نحن معشر النساء ترابط الفكر وتماسك اطرافه عند ما نخوض المسائل العامة ـ وان نكن سريعات الادراك بما منحناه من حدة الذكاء حتى لقد نميز ما يميزه الرجال بل قد نفوقهم تمييزاً ـ ولكننا شديدات التأثر والانفعال . وهذا ما يبعدنا عن الانصاف وصدق النظر ومتانة الحكم ومن الصعب علينا ان نتأمل طويلاً في موضوع من المواضيع . . . » . وقالت مدام دي لامبير نحو ذلك وهو قولها : « ان قدرة العقل على الفحص والعفة التأمل ناقصة في المرأة لان العاطفة المسيطرة عليها تلهيها وتستهويها . . . كأن الافكار تأتيها جاهزة فتترتب في ذهنها وتنتظم فيه بوحي الغريزة لا بالتأمل . . . » . وقالت اخرى : « تنقصنا قوة العقل التي تجتاز القشور الى الاصول »

كل هذه الاقوال تعلل لنا ما اشتهرت به المرأة من الطيش والتنقل والخفة العقلية ـ حتى ان أقدر النساء وأعقلهن لم يسلمن من هذا النقص . حدث غوته الشاعر الالماني عن مدام دي ستال الادبية الفرنسية انها زارته يوماً (وكانت تتردد عليه أثناء مكوثها في المانيا منفية من فرنسا) وأخبرته حال وصولها ان نابوليون ـ وكانت تسميه الطاغية ـ القى القبض على القائد مورو وبعض رفاقه بتهمة الخيانة . قال : « وكنت ـ أسوة بغيري من الناس ـ أهتم لامر ذلك الشخص السامي الخلق (أي مورو) فكنت أفكر في ما مضى من الحوادث لاستخرج منه نتيجة أو حكماً . . . ولكنها لم تلبث ان هجرت هذا الموضوع وأخذت تتحدث عن أمور تافهة لا شأن لها . أما أنا فكنت مستغرقاً في

تأملاتي ولم يحضرني ما أجيب به على حديثها فغضبت لذلك ولامتني على ما طالما شكت منه فيَّ وهو اني «عابس كعادتي ولا تمكن محادثتي بحبور وانشراح» ولكني لم أصبر على قولها هـذا فقلت لها : «حقاً انك لا تستطيعين ان تعني بشيء عناية جدة . فقد بادرتني بصدمة شديدة وتريدين مع ذلك ان أجاريك في رغباتك المتغيرة وان أتنقل معك على الدوام من موضوع الى آخر ؟» اه . ان هـذه القصة ذات مغزى لبحثنا ولا سيما ان مدام دي ستال لم تكن بين النساء دون غوته بين الرجال بل انها من أندر بنات جنسها فطنة وعقلاً .

على اني مع كل ذلك لا أسترجع شيئاً مما قلته عن المرأة آنفاً . فلها لا تقل ذكاء عن الرجل وان اختلفت مظاهر ذكائها كما رأينا . وقد آن لنا ان نحلل هذا الذكاء الى عناصره التي يتألف منها مقابلين في كل ذلك مواهب الرجل بمواهب المرأة

الادراك

ان قوة الادراك بمعناها الفلسفي المحصور – وهي القوة العقلية التي تبين لنا المبادئ الاساسية البديهية (كمبدإ السببية اي انه لا بد لكل حدث من سبب ، ومبدأ المناقضة اي انه يستحيل اجتماع صفتين متناقضتين في الشيء الواحد) – مشتركة على السواء بين الجنسين . وهي لازمة للعقل البشري اصيلة فيه ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء . ولولا هذه الوحدة لاستحال تفاهم البشر وتوافقهم المعنوي

فما الذي ينقص المرأة اذاً ؟

ليس ما ينقصها دقة الحواس . فكل ما كتب في هذا الشأن لا يؤدي الى نتيجة مفيدة . وهب اننا جارينا القائلين بخشونة حاستي الشم والذوق فيها – وهو ما لم يثبت بعد – فلها ليست بدون الرجل في الحواس الاخرى لا في دقة اللمس والسمع ولا في حدة البصر . ولا ريب في ان هذه الحواس الاخيرة اعظم شأناً من الحاستين الاوليين فلها تجلب للعقل من المعلومات اكثر مما تجلبان له . ومهما يكن الامر فان القوة العقلية لا تقاس بدقة الحواس وخشونتها . فقلما يكون للحواس تأثير فيها . فلم يكن ارسطو ونيوتن وديكارت على ما نعلم اصحاب حواس ممتازة

الذاكرة

أما فيما يخص الذاكرة فقد اجمع الملاحظون على بروز هـذه الموهبة في المرأة ولعل البعض منهم لم يمنحوها حقها هذا الا ليتيسر لهم انكار مواهبها الاخرى . وهاك من الحوادث والشواهد ما يثبت تفوق الذاكرة في النساء :

لقد دلت الامتحانات العمومية على ان الفتيات يحزن قصب السبق في كل ما يتطلب الحفظ . بل حتى في المواضيع التي ليس للحافظة فيها شأن عظيم تجدهن ميالات الى اعادة ما يطالعنه او ما يسمعنه حرفياً . وسبب ذلك هو انهن لا يعتمدن على انفسهن بل يؤثرن الاعتماد على ما يتلقنـه من الجمل . وقد طلب مرة من التلميذات المتقدمات لامتحان مدرسة المعلمات في فرنسا أن يجبن على السؤال الآتي : « هل تشعرين بميل خاص الى موضوع من مواضيع الدراسة ؟ » فكان اختيار أربع تلميذات من كل خمس لموضوع التاريخ . وفي التاريخ نفسه تجدهن ماهرات متى طلب اليهن سرد الوقائع وقد يصعب عليهن بيان الاسباب والنتائج والمقارنة بين الحوادث

وفي ذلك ما يعلل لنـا ايضاً لينهن وطواعيتهن ونحو ذلك من الصفات التي اجمع المعلمون على امتداحها في الشابات . على اني اعرف استاذاً ما برح يشكو من ذلك لانه لم يتمكن – رغم سعيه المتواصل – من حمل تلميذاته على تسميع الدروس بصورة غـير التي اوردها هو او التي اوردها الـكتاب . وما سبب ذلك الا انطباع تلك الصورة في حافظتهن . ومن السهل على الاستاذ المحبوب أن يمتع تلميذاته بكل ما يريد اقناعهن به. على ان الضرر عظيم من الاعتماد على الذاكرة وحدها واهمال القوى العقلية الاخرى

ولا يؤخذ مما تقدم ان هذا النقص خاص بمعشر النساء فلله در الشاعر غوته القائل : « ما اندر الاصوات في هذا العالم وما اكثر الاصداء ! » وانه لحقيق بكثير من الرجال ان يقولوا مثل ما قالته مدام دي سيفينيه عن نفسها وهو قولها: « أما أنا فلكوني مخلوقة انيسـة اليفة – كما تعهدينني – فانني اكتفي على الدوام بترديد الرأي الاخـير الذي أسمعه » . وهذا هو السبب الذي يجعل الآراء الشخصية نادرة بين النساء . فانمـا آراؤهن في الغالب آراء البيئة التي يعشن فيها . وهو أيضاً سبب ميلهن الى المحافظة على القديم المألوف في كل موضوع

الابتكار

فمن ذلك نرى ان الميزة التي سلم بها ملاحظو المرأة تعود من جهة أخرى فتنقلب عليها وتحول دون نموها العقلي . فقد أنكروا عليها جميعاً قوة الابتداع والابتكار. ولخص هذه التهمة الاستاذ كرل فوجت السويسري في مقالة جاء فيها انه لا يؤاخذ تلميذاته بالكسل فانهن - بعكس ذلك - « مثال الانتباه والاجتهاد » فضلاً عن مواظبتهن على حضور الدروس وتدوين المذكرات . وانما الذي ينتقده عليهن هو تلك الطواعية العمياء . قال : « ... يدلني اختباري على ان الشابات يفقن الشبان عموماً في الامتحانات . ولو لم تخرج الاسئلة عما قيل في الصف أو ورد في الكتاب لكانت نتيجتهن باهرة على الدوام . ولكنهن قد يعجزن عن الجواب اذا أتاهن السؤال مواربةً فيتلعثمن حالما يستدعي الامر تفكيراً شخصياً » . ونتيجة بحث الدكتور فوجت هو ان المرأة قادرة على تخزين المحفوظات ولكنها قاصرة فيما يخص ابتكار العقل واختراعه

على ان أحد زملاء الدكتور فوجت خالف رأيه (في مقالة نشرت بعد تلك المقالة) فقال : « يندر ان تجد ذاتية بارزة في التلاميذ عموماً سواء في ذلك الشبان والشابات » . ولما كانت هذه المسئلة ذات شأن خطير يجدر بنا ان ندقق في درسها . ولكي تسهل علينا تلك المهمة ينبغي لنا الابتداء بدرس المواهب الاخرى المرتبطة بهذا الموضوع كالخيال وحب الاستطلاع والكفاءة للبحث العلمي

الخيال

للنساء على الاجمال خيال قوي يحملهن على المبالغة في كل شيء - في متاعبهن وهمومهن ومخاوفهن وآمالهن الخ . وان لمن الصعب عليهن ان يرين الاشياء كما هي في الواقع من غير تعظيمها على صورة من الصور.

وقد أجمع الملاحظون على عد الخيال من مميزات المرأة البارزة فيها - وهو ما يجعلها متنقلة مضطربة على الدوام . قالت مدام دي لامبير : « لما كانت الاعمال الجدية محرمة على النساء فقد بزرت فيهن قوة الخيال كأنها تعيضهن من سائر المواهب الاخرى . فهي تعظم في المرأة ما يطرأ عليها من لذة وألم عشرة أضعاف قدره - هذا اذا لم

تخلقه من أوله الى آخره . . . ولا أنكر ان هذه الموهبة ـ اذا عدّلت وكبحت ـ آلت الى انقاص احساس اللذة لانها تحلي الاشياء بسربال من الجمال والبهاء (وان يكن وهمياً) . ولكن ما أكثر الآلام التي تحدثها لنا أيضاً ! انها تحول دائماً بينك وبين الحقيقة فلا أثر للعقل حيث يسود الخيال . وحبذا اتفاق مع هذه القوة يعيد اليها لذاتها مقابل ابطال الآلام التي تأتينا بها . فليس من حائل دون السعادة أعظم من الخيال الملتهب الحساس »

أجل ان سلطة الخيال على المرأة عظيمة ـ ليس على أحكامها فقط بل على ارادتها أيضاً . ثم ان الخيال يشت ويتسع مجاله في حالة الضعف الجسماني والانحطاط العصبي . فلا بد من تعديل هذا الميل الفطري في المرأة . ولا معدل له أفضل من سلامة الذوق وتوازن التربية . ولولا هذا المعدل لظل الخيال منشأ الاوهام والاخطاء على انواعها . وهو ما تقع فيه المرأة كثيراً

على ان الخيال ليس مقصوراً على هذا النوع الاسفل الذي يكتفي بتضخيم ما يعرض للعقل من الحوادث والاشياء . فان هناك خيالاً أسمى منه وهو الخيال « المبدع » الذي عليه قوام النبوغ والعبقرية . فهذا الخيال لا يقتصر على تهيئة الصور وتعظيمها بل يوفق بينها ويدمجها بعضها في بعض ويستخرج منها صوراً جديدة . هذا هو سر الاختراع والابتكار . ولا جدال في ان المرأة متخلفة في هذا المضمار . فقليلة الاختراعات المسجلة باسماء النساء . ورغم انصرافهن الى الفنون الموسيقية لم يبرز بينهن مؤلفة عظيمة . كذلك يندر ان تجد بينهن شاعرة فحلة

ولكني أعتقد ان القسط الاعظم من هذا القصور راجع الى تاريخ المرأة وتربيتها الماضية . فان من يتتبع تقدم النساء في السنوات الاخيرة ـ أي بعد ان فتحت لهن أبواب السعي والعمل ـ يجد بينهن غير واحدة ممن نبغن في الفنون الجميلة على اختلاف انواعها . وهو ما يبشرنا بمستقبل زاهر للمرأة من هذا القبيل . فلنمتنع عن التضييق على الطبيعة البشرية فان فيها قوى كامنة تتفجر أحياناً بزخم لا يتوقعه أبصر الحكماء . واي قصة أعجب من قصة جان دارك تلك الراعية الامية التي توصلت وهي في العشرين من عمرها الى قيادة جيش عظيم بمهارة فائقة ! . .

حب الاستطلاع

ان رغبة الاستطلاع مبدأ كل علم . فحين يدهش الانسان مما يراه حوله وحين يشعر بدافع يدفعه الى المعرفة والتعليل اذ ذاك تمو فيه جرثومة العلم . فهل هذه الموهبة من مواهب المرأة ؟

لا ينكر اولاً انها نادرة بين الرجال . ولكنها بلا ريب أندر بين النساء . هذا اذا عنينا بحب الاستطلاع ذلك الدافع الداخلي الذي يدفع صاحبه الى استكشاف الخفايا واستجلاء الغوامض والذي يحثه على استخراج الحقيقة من مكامنها في الطبيعة والاجتماع . فهذا هو الدافع الذي يكوّن العلماء والمخترعين . أما حب الاستطلاع الذي يحوم حول الامور التافهة والاحاديث المتناقلة ونحو ذلك فانه أظهر في النساء بوجه الاجمال كما ذكرنا . على أن هذين النوعين — وأن يكونا مظهرين لغريزة فطرية واحدة — فقد اصبحا متناقضين ومن المحال اجتماعهما في شخص واحد : فالنوع الاسمى يطرد الادنى والادنى يطرد الاسمى

ويؤخذ من تراجم مشاهير العلماء أن غريزة الاستطلاع تبرز فيهم منذ حداثتهم ، فقد كان لي رفيق في المدرسة اطلع يوماً على قائمة أحرف هيروغليفية فاخذ على نفسه من ذلك الحين — بلا أقل حض او تشجيع ، بل من غير اطلاع أحد على نواياه — أن يدرس تلك اللغة . فكان كلما اجتمع لديه قليل من الدراهم قصد بائعي الكتب القديمة ليشتري منهم ما له علاقة بلغة مصر وتاريخها . وظل على ذلك عشر سنوات متتابعة . وفي ذات يوم بهر رفاقه فجأة من مهارته في هذه المباحث . وقد اصبح بعد ذلك اكبر ثقة في التاريخ المصري القديم — ألا وهو غاستون مسبرو العلامة الشهير . فمثل هذه الموهبة الفطرية للاستطلاع والاستكشاف نادرة جداً بين النساء — ان لم تكن معدومة بالمرة . على انه ينبغي ألا يبرح من ذهننا انها نادرة كذلك بين معشر الرجال . والذي اراه في هذا الموضوع انه لو أتيح للنساء الانصراف الى الاعمال الجدية واصلحت تربيتهن ومعيشتهن لسما ما فيهن من حب الاستطلاع وانتقل من مرتبته السفلى الى مرتبته العليا

الكفاءة للبحث العلمي

واذا سلمنا للمرأة بحب الاستطلاع فهل نسلم لها بالكفاءة للبحث العلمي ؟ ان هذه الكفاءة تقوم بقوى التجريد والتعميم والحكم. وهي القوى التي ينكرها سواد الملاحظين على المرأة اذ يقولون انها كالطفل تكره المعاني المجرّدة (أي التي ليس لهـا مدلول محسوس) وتعجز عن استخراج الافكار العامة والاحكام الشاملة

ان في هذه التهمة قسطاً من الصحة . ولكننا اذا تمسكنا بمعناها الحرفي وجدناها واهية الاساس . فان من السهل تعليم المرأة العلوم الرياضية كالجبر والهندسة وغيرهما . وقد كانت شهادة الليسانس في الرياضيات اول الشهادات العالية التي حازتها النساء في فرنسا . وكثيراً ما يعلّمن تلك العلوم بحذق ومهارة . ويطول بنا الشرح لو اردنا سرد اسماء النابغات في العلوم من قديم الزمن فنقتصر على بعض الامثلة : ففي القرن الثامن عشر نبغت عالمة اسمها لورا باسي في مدينة بولونيا بايطاليا فجازت امتحان الدكتورية في الفلسفة وهي في الحادية والعشرين من عمرها ثم جلست على كرسي التعليم في جامعة بولونيا وعلمت الفلسفة فيها وظلت في مركزها هذا بعد ان تزوجت ورزقت عدة اولاد . ومن هـذا القبيل ايضاً مدام كوفالفسكا التي توفيت حديثاً فقد كانت أستاذة في جامعة ستوكهلم واشتهرت ببراعتها الفائقة في الهندسة . وقد تخرج على يديها نفر من علماء هذا العصر ومنحتها اكاديميـة العلوم الفرنسية الجائزة الكبرى للعلوم الرياضية سنة ١٨٨٨ . وقس على ذلك أمثلة أخرى لا محل لذكرها

فمن ذلك نستنتج ان المرأة قد تنبغ في العلوم الرياضية وانه ليس في طبيعتها حوائل دون نبوغها في هذا المضمار . وما الفرق بينها وبين الرجل من هذا القبيل الا فرقاً نسبياً فقط وهو ناشيء بلا ريب عن نوع المعيشة والتربية والعادات

ولكن هل نستفيد مما تقدم ان التهمة التي ذكرناها عن قصور المرأة في ادراك المعاني المجردة واستخراج الافكار الشاملة باطلة لا أساس لهـا ؟ كلا . بل لا تزال هذه التهمة صحيحة ولكن قد تبين لنا الآن مجالها وتحددت أوجهها . فقد تبرع المرأة في مضمار الاعداد والمقاييس اذا وفقت الى من يحسن تعليمها وارشادها ولكنها قلما تبرع في مضمار استقصاء الظواهر الطبيعيـة والاجتماعية وليس من السهل عليها ان

نستخرج الاحكام العامة من الحوادث المفردة . ولا غرابة في ذلك فان ما علمناه من أخلاق المرأة يمهد لنا سبيل توقعه : فقد رأينا انها قلما تعنى بغير المحسوس وانه يندر ان تحفل بالآراء العامة ، ورأينا أيضاً ان ذكاءها فطري غريزي مستمد من القلب لا من العقل . فمن ذلك نستنتج ان المرأة تكره المعنى المجرد والدرس التحليلي ، وانه يصعب عليها الانتقال من الخاص الى العام ومن الفردي الى الاجمالي ، وان لا صبر لها على ملازمة قواعد القياس المنطقي لما تجده فيها من النشوفة . والنساء اللواتي كتبن في هذا الشأن قد اعترفن جميعاً بذلك . قالت سيدة مستنيرة رداً على سؤال القيته عليها : « ليست قواعد القياس المنطقي من صنع المرأة ولا هي مصنوعة لاجلها » . وقد إلقى العلامة ريبو الشهير أسئلة على بعض النساء ليستدل منها على تصورهن للمعاني المجردة كمعنى « السبب » ومعنى « العدد » فوجد انهن على الغالب لا يتصورن تلك المعاني الا في صور محسوسة ــ أي انهن لا يدركنها مجردة بل مقرونة باشياء وحوادث واقعة في دائرة اختبارهن . وانه ليتعذر عليهن تجريد تلك المعاني وادراكها وحدها بقطع النظر عن تلك الاشياء والحوادث

ومثل ذلك يقال في الحكم . فليس التروي في الاحكام من صفات المرأة ، بل كثيراً ما تثب من المقدمة الى النتيجة وثبة واحدة ، أو قد تعتمد على براهين لا قيمة لها من الوجهة المنطقية ، فتعد يقينياً ما يفتقر الى الاثبات ، وتصغي لوحي قلبها في حين ينبغي أن يكون الحكم للعقل وحده . . . الى آخر ما هنالك من العوامل المضللة للبصيرة . وليس اتعب للرجل العاقل الرزين من مجادلة امرأة ــ مهما تكن مثقفة مستنيرة ــ فانه من الصعب عليها تتبع حلقات الجدال وحصر كلامها في موضوع المناقشة . كنت ذات يوم احدث سيدة عن مواعظ القاها أحد مشاهير الخطباء في موضوع « الفقر » . فقلت لها ان الخطيب اجاد في الكلام ولكن ليس في معانيه ما يعد جديداً وقد كان الجمهور يتوقع غير ما سمع . فاجابتني على الفور : « ولكن يا سيدي اذا ألغيت الاحسان من العالم فما الذي يحل فيه حينئذ ؟ » كأني بانتقاد الخطيب قلت بابطال الاحسان . فهذه القصة مثال لما يحدث كثيراً من خروج السيدات عن الموضوع الذي يدور عليه الحديث

وهاك مثلاً آخر ــ ولعله أدل من المثل الاول : دار الحديث يوماً بيني وبين سيدة

وفتاتها على موضوع الزواج. فقالت الفتاة : « لا أتزوج الا اذا وجدت رجلاً كوالدي » فاجبتها : « ... ولكن يا صديقتي هل تظنين انه من السهل العثور على من يشبه والدك ؟ » وما كان قصدي من هذا القول الا أن أبين لها مقام والدها في نظري . على اني علمت بطريق الصدفة فيما بعد ان الفتاة ذرفت دموعاً غزيرة في ذلك المساء اعتقاداً منها - كما قالت - « اني لا أحبها واني لا أريد سعادتها »

فليس ما هو ألزم للسيدات من التدرب على القياس العقلي الصحيح وعلى التروي في الحكم وتمحيص الادلة والبراهين وتمييز المثبت من غير المثبت والمرجح من اليقيني . فلئن لم يتسنَّ ذلك الا لافراد قليلين فانهُ أندر بين النساء ولذا كانت حاجتهن الى الاصلاح اعظم

الخلاصة

وخلاصة هذا المبحث ان لدى المرأة قدراً عظيماً من الذكاء وانه ذكاء حاد « وثاب » . ولكنه مع ذلك - بفعل الطبيعة وفعل التربية - قليل العمق قصير المدى ، كما أنه قليل التروي سريع الوصول الى النتائج . ومن اوصافه أيضاً انه دقيق اكثر منه متين وفطري اكثر منه اكتسابي . وليس كل ذلك حجة للاحجام عن تثقيفه وتقويته بل الامر بعكس ذلك فليس من غرضنا مجاراة شربوليز في قوله : « تحمل المرأة علمها كما تحمل ساعتها - فلها لا تحملها الا ليعلم الناس بوجودها وان لم تدرْ قط أو لم تدر بانتظام » بل اننا نقول مع مدام دي منتنون : « ليس علمها الا نصف علم لانها تكتفي بحفظ ما تتلقنه بلا فحص ولا تمحيص ومن دون أن تستكشف شيئاً بنفسها ، في حين أن هذا هو اساس المعرفة الجيدة »

والذي أراه أن ما في المرأة من الذكاء الفطري والمهارة الطبيعية يفوق بلا ريب ما تكتسبه من العلم والمعرفة . فينبغي ألاَّ يكون تعليمها قاتلاً لما فيها من السجايا الغريزية . فلئن كانت مواهبها العقلية مختلفة فلها تمتاز على الخصوص بذلك الذكاء المرن الذي يجعلها ماهرة في حسن التخلص قادرة على حزر الرغائب الخفية والنزعات الكامنة .

ولذا تبرع المرأة في فن الحديث كما تبرع أيضاً في كتابة الرسائل الودية - وليست المراسلة الا حديثاً مكتوباً . ولكنها مقصرة في ما يستدعي صدق النظر وصحة القياس

وضبط المنطق . وعلى الاجمال تبرع النساء في الادب اكثر من براعتهن في العلوم.

على انه من الميسور تدريبهن شيئاً فشيئاً على طرق التفكير العلمي الصحيح واصلاح ما فيهن من الطواعية الزائدة والقابلية للاستهواء وكل ما من شأنه حملهن على تصديق ما يقال أمامهن بلهجة التأكيد من غير نقد او تمحيص . ان هذه المهمة شاقة بلاريب . ولن يتم هذا الاصلاح في جيل واحد فليس المطلوب فك القيود التي تربط عقل المرأة وانما المطلوب تهذيبه وتدريبه على الطرق القويمة . ويتعذر علينا منذ الآن معرفة مدى الرقي الذي تصل اليه المرأة اذا انتهجت هذا المنهج . فلندع ذلك للايام تبينه وتستجليه . والاجدر بنا ان نترك للمرأة نفسها تحديد ذلك المدى لا ان نحدده نحن بأثرتنا واستبدادنا.

وعلى كل حال فليس المطلوب من النساء ان يجارين الرجال في البحث والتنقيب . فتقدم البشرية لا يتم في معمل العالم وحده أو في مكتب الفيلسوف . ولا بد من معاونة النساء في هذا السبيل . فليست غاية المرأة القصوى ان تكون عالمة أو فيلسوفة بل يكفيها ان تحيط بما بلغته البشرية من اوجه الرقي العلمي والفلسفي وان تقدر ذلك حق قدره . فان عنايتها بهذه المواضيع كافية وحدها لحمل الرجل على ايضاحها واستجلائها ـ وأي حاجة فيما سوى ذلك تحملها على انتاج الآثار الادبية والعلمية ؟ فالواجب عليها اولاً ان ترينا كيف نحسن معيشتنا وكيف نستلذ ما في الحياة من طيبة وجمال ومحبة . ولعل ما في المرأة من روح المحافظة على القديم ملطف لتهجم الرجل على المجهول الجديد ـ ومن شأن ذلك حفظ التوازن المعنوي بين البشر.

الفصل العاشر

ارادة المرأة

لقد وصلنا الآن الى القسم الاخير من الاقسام الثلاثة التي تتألف منها الحياة العقلية . فقد درسنا احساس المرأة ثم درسنا ذكاءها . وبقي علينا ان ندرس ارادتها وما يدخل في ذلك

تعريفات تمهيدية

وظيفة الاحساس في الحياة قبول التأثيرات التي تدفع الى العمل ، ووظيفة الذكاء التمييز والارشاد قبل الاقدام عليه . وبعبارة أخرى ان الاحساس يحثنا على العمل . والذكاء يهدينا الى الطريق الملائمة له . أما الارادة فهي المنفذ لما نطلب ونبتغي . على انه يجب ألاّ يبرح من الذهن ان هذا التحليل مختلق لان تلك العناصر لا تبدو مستقلة بل تكون مركبة متداخلة على الدوام . فاننا في كل لحظة من حياتنا نحس ونفكر ونعمل معاً . وانما الفرق في استظهار احدى هذه القوى على سواها وبروزها عليها

ولا يخفى ان فريقاً من الفلاسفة ينكرون حرية الارادة في الانسان ويعدونه بمنزلة الآلة الميكانيكية التي تحركها قوى مختلفة فتتجه مضطرة في جهة القوة الغالبة أو في الجهة التي تتعين من تفاعل تلك القوى . ولكني ممن يرون خلاف ذلك الرأي فاني أعتقد ان في البشر ارادة حرة وهي تلك القوة الداخلية التي تكوّن الخلق وتكيف النفس . وليس هنا مقام التوسع في هذا المبحث الذي يصعب فيه الوقوف عند حد

ومما يجدر ملاحظته أن قوة الارادة في المرء غير قوته الحيوية . فقد نجد بين الناس من هم اصحاب نشاط جسدي عظيم في حين ان نشاطهم المعنوي ضئيل ، كما انك قد تجد ارادة حديدية وعزماً صادقاً في اجسام نحيلة مهزولة

ثم ان لكلمة « الارادة » معنىً عاماً ومعنى خاصاً . فبالمعنى العام تشمل الارادة أعمال الانسان جميعاً سواء صدرت عن الغريزة أو البصيرة . وبالمعنى الخاص تفيد

العمل المتأتي عن البصيرة والروية ، المبنيّ على مبادئ معلومة اتخذها الانسان نبراساً لحياته ـ وهذا هو المقصود حين نصف رجلاً بأنه صاحب ارادة . فانما نريد بذلك أنه مالك لزمام اهوائه قادر على تدبير نفسه

وبهذا المعنى الخاص نجد في الانسان نوعين من الارادة :

اولاً — القوة التي بها يبت ويقرر

ثانياً — القوة التي بها ينفذ مراده ويثبت فيه

فلا يكفي ان نبتّ في الامر الذي نريده ونقرر مصيره . بل يجب أن ننفذه ونثابر عليه . ولا ريب في ان قوة التنفيذ والثبات اعظم شأناً من قوة البت والجزم ، فضلاً عن كونها اندر منها بين الناس . فكثيرون هم الذين يعزمون ويقررون ولكن قليلين منهم ينفذون ما عزموا عليه ويصبرون على تذليل العقبات التي تعترضهم . واما رجل الارادة هو ذاك الذي اذا ما عزم على امر لم يأل جهداً في تنفيذه رغم الحوائل التي قد تحول دونه . فمن الناس من يتحولون عن اغراضهم عند اول عقبة يتعثرون بها ولذا كانت اغراضهم متلونة متنقلة على الدوام لا تعرف الاستكانة والاستقرار . ولعل من هذه حالته أضعف الناس ارادة ـ وان توهم انه يعمل مّا يريد

وهناك ضعف آخر في الارادة يحسن بنا الاشارة اليه في هذا المقام ـ وهو العناد . وشتان بين العناد والثبات ! فالعناد بمنزلة جمود في الارادة ينم عن نقص في التكوين الخلقي . ولنتقدم الآن بعد هذا التمهيد الوجيز الى استبانة مظاهر الارادة في المرأة

الجرأة

يضرب المثل بضعف المرأة المعنوي . ومن الحطة في نظر الرجل أن يشبه بها من هذا القبيل . فليس من اهانة له اعظم من ان يقال عنه « انه كالمرأة في جبنه » . بل كأن النساء يصادقن على هذا القول بايثارهن رجال الاقدام والنشاط . وطبيعي في الانسان أن يطلب ماينقصه وما يكمله . قالت مدام دي منتنون :« الرقة فضيلة جنسنا فعلينا أن نترك للرجال ما يبدونه من الجرأة والبأس في ساحات القتال . . . فلا يلائم اخلاقنا الا الحياء والاتضاع »

ومع ذلك ان الشواهد كثيرة تدل على بسالة المرأة وشجاعتها في بعض الاحيان . ولا حاجة بنا الى ذكر قائمة وافية بنابغات النساء في هذا المضمار قديماً وحديثاً . فمن أمثلة ذلك

ما ذكره تاسيت عن امرأة سنيكا الفيلسوف من انها لدى وفاة زوجها بضعت نفسها بموسى لتموت معه وقد تدوركت وهي مشرفة على الهلاك . وذكر تاسيت ايضاً قصة امرأة رومانية دبرت مؤامرة فلما طلبت للمحاكمة خنقت نفسها كي لا تجبن امام قضاتها كما جبن زملاؤها الذين أخذوا يتنصلون من التهم الموجهة اليهم ليتهموا بعضهم بعضاً . وأمر الهنديات اللواتي كن يحرقن أنفسهن أثر موت ازواجهن مشهور عند الجميع . والتاريخ ممتلئ بالحوادث التي من هـذا القبيل . بل كثيراً ما قاتلت النساء بجانب الرجال ولا سيما في ايام الثورات والانقلابات مما يضيق المقام عن سرده (١)

ولئن كانت هذه الحوادث استثنائية فانها كافية للدلالة على أن طبيعة المرأة لا تحول دون متانة خلقها وسمو نفسها . ثم ان لها جرأة من نوع مخصوص ولا سيما متى اقتضت الحال جلداً وصبراً . فهي بارعة في هذا الضرب من الشجاعة وشتان فيه بينها وبين الرجل . وبعبارة أخرى انها تبرع في ما يتطلب منها أن تقاسي وتعاني اكثر من براعتها فيما يستدعي النشاط والاقدام

على ان هناك أمراً يجب ان يكون مانعاً لمعشر الرجال من رمي المرأة بالجبن . وهو حطة الغاوي الذي يحجم عن منازلة من يوازيه قوة فيستنزل الفتاة الضعيفة الى هاوية الفساد حتى اذا نال منها وطراً لم تؤثر فيه دموعها ولم يرق لتوسلها واستعطافها . ومع ان الرأي العام لم يتنبه بعد لدناءة هذا العمل وشناعته فانه يتعذر ان تجد خسة تهبط بالانسان الى أسفل من هذه الدركة

قوة البت والتقرير

أما قوة البت والتقرير فهي في المرأة على الاجمال أضعف منها في الرجل . فما منشأ هذا الضعف يا ترى وهل ينشأ عن خمول في فطرتها ؟ كلا فانه يتأتى في الحقيقة عن شدة اندفاعها . فليس عائقها عن البت والتقرير قعود فكرها وقلة مطاليبها وانما العائق حدة طبعها وكثرة رغائبها وتلون نزعاتها ـ هـذا هو ما يجعلها متخلفة في مضمار الحكم الاستقلالي . ولا يخفى ان الاستقلال في الحكم هو أول ما يكوّن الذاتية المعنوية

ولكي تتحول الدوافع والبواعث التي تتجاذبنا الى أحكام وقرارات لا بد لها

(١) انظر مقالة النساء المقاتلات قديماً وحديثاً في الهلال سنة ٢٦ صفحة ٣٢٩

من شرطين : أولاً ان يستمر تأثير الدافع أو الباعث مدة من الزمن حتى يتسنى له ان يكون بداية سلسلة من الاعمال . ثانياً ان يداخله قسط من التفكير كي يقبله العقل ويوافق عليه . فهذان الشرطان ينقصان المرأة غالباً اما لكثرة رغباتها أو لتسلط رغبة واحدة على حياتها . ففي الحالة الاولى تتتابع الرغبات في نفسها من غير ان تقر على شيء منها . وفي الحالة الثانية تستعبد لهوى أعمى يُخضع كل عمل من اعمالها . قال أحدهم : « المرأة إما ان تكون معدومة الجرأة أو ان تكون متطرفة فيها » . وكلا الحالتين ضعف خلقي

ثم ان هنالك سبباً آخر يمنع المرأة من مجاراة الرجل في قوة البت والحكم وهو ما تتصف به من التقليد وقابلية الاستهواء . فانها قاصرة بطبيعتها عن التفكير وحدها ويندر ان تكون افكارها غير مستمدة من البيئة والعادة والعرف والرأي العام او من الشخص الذي تحبه وتوقره . لان المرأة مفتقرة دائماً الى من يعينها ويرشدها مادياً ومعنوياً . ولئن اقدمت المرأة احياناً – عند ما تفقد سندها – على تدبير شؤونها وشؤون دارها وأسرتها فانها لا تلبث ان تشعر بتعب عظيم من جراء ذلك فتشكو امرها للمقربين اليها في حين يعجب الغرباء بقدرتها . واذا تبصرت في حالة الفتيات وجدت ان ذلك النقص الخلقي – أي افتقارهن الى المتانة المعنوية والاعتماد على النفس – من الصفات المرغوبة فيهن بوجه الاجمال . فالرأي العام يستهجن الفتيات المستقلات صاحبات الذاتية البارزة . وهذا ما ينبغي ملافاته بالتربية الصحيحة التي تقوي في المرأة قوة الحكم والتقرير على شرط الا تنقص شيئاً من ظرفها ورشاقتها . ولعل هذه المسئلة اعقد المسائل في تربية البنات

قوة التنفيذ والثبات

ينبغي لنا الآن أن ندرس مقدرة المرأة على تنفيذ ما تقرره وثباتها في الخطط التي ترسمها . ففي هذا المضمار ايضاً نجدها متخلفة عن الرجل . فلقد تحسن المرأة امراً في بدايته ثم تقف عند هذا الحد وتعجز عن مواصلته . أما سبب هذا الضعف الخلقي فليس من الصعب استكشافه . فما هو الا تنقل المرأة في رغباتها الناشئ – كما رأينا – عن قابليتها الشديدة للتأثر من اتفه الاشياء . قال ريشتر : « قد ينقاد الرجل لهواه أما المرأة فتنقاد

لاهوائها : هذا يتبع مجرى شديداً وتلك تتلاعب بها مجار متناقضة » . ولذا فالمرأة موصوفة بتنقل مطالبها وتلوّن اغراضها . وهي في الغالب لا تتعمد ذلك فانما هذا طبعها الذي فطرت عليه .

وقد ذكر ريبو بين امراض الارادة خلق التقلب والتلون فدرسه بالتدقيق والتفصيل . على اننا لا نعده مرضاً نفسانياً الا حين يجاوز الحدود المألوفة . وبهذه الصورة يشاهد في الهستيريات والعصبيات

ودرس ريبو ايضاً ضعف الانتباه وعده كذلك من امراض الارادة ففصل بينه وبين خلق التقلب والتلون . والحقيقة ان الحالتين نتيجة عجز الانسان عن امتلاك نفسه والسيطرة على احساساته ، اذ تكثر فيه الصور الجذابة والانفعالات الشديدة فتتغلب القوى الدافعة على القوى المانعة فيقدم الانسان على العمل من غير روية . قال : « ان الاولاد والنساء وأصحاب العقول الخفيفة لا يستطيعون حصر انتباههم لمدة طويلة لان التأثيرات التي تحدثها الاشياء في نفوسهم ضئيلة جداً »

وجملة القول ان الذي يمنع المرأة من حصر انتباهها في مجال ضيق هو كونها لا تملك انفعالاتها مع كثرتها وتناقضها . ومن شأن ذلك تشتيت الانتباه كما ان من شأنه تنقل الرغبات وتلوّن الاغراض

ولا يخفى ان الهستيريا من الامراض الشديدة الانتشار بين النساء وان لم تكن خصيصة بهن . وما الهستيريا الا مرض مزمن يصيب الارادة فيجعل المصاب به متقلباً على الدوام لا يثبت ولا يستكن : فتراه تارة مغبوطاً وطوراً مغموماً ومرة لطيفاً وأخرى غليظاً - وبعبارة وجيزة فاصحاب هذا المزاج لا يستقرون على حالة الا حالة التقلب ، بل كأن عقلهم في فوضى مستديمة

على ان هذا الوصف بعد تلطيفه وتخفيفه ينطبق على السيدات بوجه الاجمال

الجلد

ولكنه جدير بنا ألا نتمادى في هذ المقال . فلئن سلمنا اجمالاً بان رغائب المرأة متقلبة على الدوام فالعاطفة الشديدة حين تستولي على قلبها تجعلها عظيمة الجلد عجيبة الصبر والاحتمال - حتى لقد تفوق اصبر الرجال وأحلمهم . ولا بد لذلك - كما ذكرنا - من عاطفة تستولي عليها . وقد تكون حباً قوياً أو ايماناً شديداً أو غير ذلك

ولست أدري هل لحظ أحد قبلي هـذه الميزة في المرأة . فانه يتراءى لي انها تملك نفسها في الحوادث الخطيرة اكثر مما تملكها في الحوادث التافهة ، وانهـا تقدر علي مقاومة الانفعالات الشديدة اكثر من قدرتها على مقاومة الانفعالات الخفيفة . كأن خفتها وتنقلها لا يتجاوزان الطبقة السطحية من حياتها . فانه يندر ان تجد امرأة لا تضطرب لدى مشاهدة فارة أو صرصور ، في حين ان كثيرات يظهرن في الملمات قدراً عظيماً من الرزانة ورباطة الجأش . فمن ذلك ما حدث على السفينة «أوريغون» وهي تغرق في البحر اثر اصطدامها بسفينة أخرى سنة ١٨٨٦. فقد شهد أحـد الركاب ان النساء أبدين في تلك الساعة الحرجة من رباطة الجأش وقوة النفس اكثر مما أبدى الرجال . بل هذا هو المألوف في معظم الحوادث التي من هذا القبيل . ومع ذلك فقد تفقد المرأة رشدها بإزاء حادث ضئيل الشأن . فانها حين تركب عربة ـ مثلاً ـ تهب من مكانها لاقل طارىء كازدحام الشارع او تلامس العربات او نحو ذلك . ولـكنك في الشدائد تجدها رزينة جلودة ولا سيما اذا لم يكن ثمت مفر منهـا مثل ما يحدث في أزمنة الاوبئة .

وتستطيع المرأة احتمال الفقر الى درجة عجيبة وخصوصاً اذا أعينت على احتماله بشيء من الدراية والعناية . على انك من جهة أخرى قد تجد بين النساء من يحملن أزواجهن على ارتكاب الدنايا ليتيسر لهن البذخ والانفاق . ولـكنني في مثل هـذه الحال ألوم الرجل الذي ينقاد الى امرأته اكثر مما ألومها هي لان عليه تقع تبعة سلوكها في معظم الاحيان

فبهذا الاعتبار يجوز لنا القول بان المرأة تصبر على المصائب الجسيمة اكثر من صبرها على المضايقات الطفيفة ، وانها تحتمل الضربات اكثر من احتمالها للوخزات

حدثتني سيدة انكليزية قالت : «ان معظم الانكليز لا يحبون النساء الموظفات في المصالح العمومية كالبوستة والتلغراف لانهم يجدونهن في الغالب دون الرجال صبراً واقل منهم لطفاً ولا سيما مع السيدات . كذلك يقال في المخازن فقد لاحظوا أن المستخدمين أصبر من المستخدمات على خدمة السيدات وتلبية طلباتهن الـكثيرة »

ومن العقبات دون قوة التنفيذ في النساء روح الخلط والتعقيد المألوفة فيهن . فالمرأة ميالة بفطرتها الى المواربة والتطويل ويندر أن ترى الاشياء على بساطتها ، كما يندر أن تسعى الى غرضها من اقرب طريق . قال احدهم : « يتعذر ان تجد امرأة

تقول لك (انتهى) من غير شرح وتفسير أو تقول (نعم) و (لا) من دون القاء خطبة مستفيضة »

العناد

وما عسى أن تقول الآن عن عناد المرأة المشهور ؟ قال مونتاين الكاتب الفرنسي : « عرفت مئات من النساء تستطيع حملهن على عض الحديد الحامي ولا تستطيع اقناعهن بالتخلي عن رأي ابدينه في ساعة الغضب . . . »

والامثال المتداولة في هذا المعنى كثيرة . منها المثل الفرنسي القائل : « ان من يطلب اصلاح امرأة كمن يطلب تبييض اجرّة (قرميدة) » . وليس العناد ثباتاً بل لعل اعند الناس اضعفهم خلقاً . وقد قيل « العناد ثبات الضعفاء » . فمن الصعب على المرأة ان ترجع عن قولها وتعترف بغلطها وقلما تقول : « أخطأتُ »

من ذلك نرى ان العناد هو الصورة التي تتجلى بها ارادة المرأة في معظم الاحيان . ولا ريب ان المثل قصد ذلك حين قال : « ما تريده المرأة يريده الله » . فلا بد اذاً من تلطيف هذا الخلق فيها بالتربية الصالحة حتى تملك ارادتها وتسيطر على اعمالها بدلاً من ان تكون عرضة للاهواء والانفعالات

الفصل الحادي عشر

مصير المرأة

غرض التربية الاساسي ان تنمي المواهب المغروسة في طبيعة المخلوق المراد تربيته حتى يتيسر له ان يحقق غايته من الوجود. ولذا يجدر بنا اولاً ان نرى ماهية تلك الغاية التي تدأب اليها المرأة حتى يتسنى لنا ان نرسم لتربيتها خطة قويمة رشيدة. فما الذي نستنتجه من درسنا لاخلاق المرأة وسجاياها في الفصول السابقة ؟

غاية المرأة من الوجود

ان الجواب الاول على هذا السؤال ـ وهو ما يجيب به العقل على بداهته وما تجيب به الفلسفة الصحيحة أيضاً ـ ينحصر في قولنا ان المرأة جعلت لتكون شريكة الرجل. قالت مدام دي ستال: « ينبغي ألا يبرح من ذهن المكلفين تربية الفتاة انها جعلت لتكون يوماً رفيقة الرجل » . فغايتها القصوى ان تكون زوجة وأماً ، وهو ما يجب على التربية ان تؤهلها له حتى يسهل عليها انتهاج الطريق المرسوم لها وحتى يتسنى لها القيام بوظيفتها حق القيام . بذلك تضمن راحتها وسعادتها

* * *

تلك هي الحقيقة التي لاجدال فيها . بل انها على بساطتها أساس النظام الاجتماعي . ولن تبلغ التربية غرضها ما لم تضع تلك الحقيقة ـ مع قدمها ـ نصب عينها على الدوام . واني أطلب الى الله ان يجيرني من اهمال هذا المبدأ الاساسي حباً بطلب الجديد من الآراء . فاني من الذين يقولون بان غاية الرجل الزواج والابوة ، بل اكاد أعد بين المجرمين كل من يحجم عن القيام بوظيفة الرجولة الحقة . فاحرى بي اذاً ان اكون في مقدمة القائلين بمثل ذلك فيما يخص المرأة .

أجل . هذا هو اعتقادي اليقيني الصريح . ويكفيني ان أقول الآن ان غاية المرأة في المقام الاول ان تتزوج ان استطاعت ذلك ، وان تلد أولاداً اذا انعم الله عليها بهذه النعمة ، وان تربيهم التربية الصالحة القويمة . فالمرأة التي يتاح لها هذا المسلك وتحجم عن سلوكه خليقة بان نرثي لها من صميم قلبنا

ولا بد لنا من تحديد هذا المبدأ الاساسي والنظر فيما يحتمله من التحفظ والاحتراس. فانه مع صحته لا يفصح الا عن جانب من الحقيقة . اذ لا منـاص من اشتراك الرجل والمرأة في تأسيس العائلة وليس هذا الامر موكولاً بها وحدها . وفي الواقع اننا نجد كثيرات من النساء غير متزوجات ، كما ان بين المتزوجات من لا يتاح لهن ان يكن أمهات، فضلاً عن اللواتي يترملن ويقضين جانباً كبيراً من حياتهن في الوحدة والاعتزال . تلك أمور راهنة لا سبيل الى اغفالها فعلينا أن نحسب لها حساباً في المبحث الذي نخوضه. ومن جهة أخرى هب انه أتيح للمرأة أن تعرف الزواج والامومة فينبغي مع ذلك اشراكها في ما يعد اساسياً من خواص البشرية . فكل من الرجل والمرأة يؤلف شطراً من الجنس البشري . وصفة «البشرية» فيهما أصل من صفة الذكورة او الانوثة. فالرجل انسان قبل أن يكون زوجاً وأباً ، وهو ما يحتم عليه اعتبار صفات الانسانية قبل صفات الرجولة . كذلك ينبغي للمرأة ان تطلب تلك الصفات قبل صفات جنسها الخاصة

ولندرس الآن هاتين النقطتين بشيء من التدقيق

١ — المرأة خارج الحياة الزوجية

قلنا ان الزواج ليس من نصيب المرأة دائماً . فانها تقضي القسم الاول من حياتها في العزوبة . وفي بعض الاحيان تبقى كذلك طول حياتها ، كما انها قد تترمل بعد زواجها . وهذه الاحوال موقوفة في الغالب على اسباب لا تقع تحت سلطانها . فهل من العدل اذاً ان نقول عنها انها لم تجعل الا لتكون زوجة واماً ، وانها فيما عدا ذلك عديمة الشأن؟ وهل من الصحيح أن يكون حكم المرأة من هذا القبيل غير حكم الرجل ؟ وهل تخطئ المرأة غايتها من الحياة اذا لم تتزوج اكثر مما يخطئ غايته الرجل الذي لم يتزوج ؟

كثيراً ما نسمع معشر الرجال يتبجحون بهذا القول ويدعون فيما بينهم ان حياتهم قد تكون كاملة بلا زواج ولا أبوة . بل منهم من يدعون ان العزوبة اشد ملاءمة لرجال الفن والعلم والعمل . تلك في اعتقادي اوهام باطلة . فان الرجل الذي لم يتح له ان يختبر هموم الزواج ولذاته لا يستحق ان يسمى رجلاً بالمعنى التام . وليس ثمت نفور بين الحياة الزوجية والحياة الفنية او العلمية . ولئن فضل بعض اهل الفن عيشة العزوبة لما فيها من الحرية الموهومة — والحقيقة ان عبوديتها لا تقل عن عبودية الزواج — فانك

نجد من جهة اخرى ان مشاهير العلماء ورجال الادارة والسياسة كانوا ازواجاً وآباء ، وان المعيشة العائلية لم تحل دون قيامهم بواجباتهم الخطيرة . بل كيف يجوز الفصل بين الرجل والمرأة في هذا الشأن ؟ ولمَ لا يكون الصالح له صالحاً لها ايضاً والطالح طالحاً لكليهما على السواء ؟

ولا يظنن ظان اني قد تناسيت ما قلته سابقاً من ارتباط المرأة بوظيفتها الخاصة اكثر من ارتباط الرجل بوظيفته . على أن ذلك الفرق نفسه يجب ان يكون مانعاً لنا من التمادي في ظلم المرأة وتعظيم ما نالها من حيف الطبيعة . فهل من الانصاف أن نميز الرجل على المرأة من هذا القبيل ؟ ولمَ لا نبيح لها ان تختار الحياة التي تحلو لها ما دمنا نبيح له ذلك ؟ واذا كان في العزوبة امتياز فلمَ لا يمنحها الرجل الحق الذي يمنحه لنفسه ؟ قد يقول أن زواجها ضروري لحفظ النوع . فهل فاته انه نظيرها في ذلك وان شأنهما واحد بحكم الطبيعة ؟ وعندي انه اذا كان احد الفريقين احوج من الآخر الى التذكير بواجباته فما ذلك الفريق الا معشر الرجال

وفي نظري أن السبب الوحيد الذي قد يحملنا على القول بان المرأة جعلت للزواج اكثر مما جعل له الرجل وان لا خلاص لها الا بتكريس حياتها لهذه الغاية هو ما نراه من اضطرارها في الوقت الحاضر — بفعل التربية والعادات — الى الاعتماد عليه ليعولها ويحميها . ولو تسنى ذلك لكل امرأة لهان الامر وحلت المسئلة النسائية على ابسط الصور . ولكن الواقع ان بعض النساء لا يتزوجن . واسباب ذلك مختلفة ولعل أهمها احجام الرجال عن طلبهن للزواج

فلا بد اذاً في تربيتهن من التحوط لهذه الحالة . لانهن اذا لم يعددن الا للزواج اذ ذاك يخشى عليهن — حين لا يوفقن الى تحقيق تلك الغاية — ان يصبحن عالة على غيرهن . اما اذا تعامى الرجل عن هذه الحقيقة وامتنع عن اعداد المرأة لما قد يطرأ عليها من الطوارئ فكأنه يريد اذلالها له على الدوام وتجريدها مما يعينها على الارتزاق في حالة الضيق

إن الحوادث المشاهدة كل يوم تدلنا على ان عدد النساء اللواتي يحتم عليهن الاعتماد على أنفسهن ليس بقليل وانه كثيراً أيضاً عدد الارامل اللواتي يفرض عليهن تربية أولادهن واعالة عيالهن . فكل ذلك يحملنا على القول من غير تردد انه يجب تأهيل المرأة لمقابلة

ما يحتمل ان تقع فيه من تلك الاحوال حتى تستطيع القيام باودها و باود من يوكل اليها أمرهم

هذه هي الحقيقة التي تتجلى لكل من يتأمل في موضوع المرأة بانصاف. بذلك تمنح المرأة قسطاً من الاستقلال الذاتي يرفع شأنها اذا لم تتزوج ، بل اذا تزوجت أيضاً. ولست أعني بذلك الاستقلال ازدراء المرأة بالزواج ، بل قدرتها على الحكم فيه وفقاً لما يتراءى لعقلها وقلبها واستطاعتها الانتظار ريثما يتسنى لها الاقتران بمن تميل اليه . ولست تجد منصفاً لا يوافق على اصلاح التربية في هذا المعنى

٢ — مشاركة المرأة للرجل في خواص البشر الاساسية

ولكن ذلك لا يكفي . فاذا سلمنا بان اول غايات المرأة ان تتهيأ للزواج والامومة فلسنا نسلم بان ذلك كل غايتها من الوجود

وقدتبين لنا من الفصول السابقة ان المرأة تحوز جميع المواهب التي يحوزها الرجل — وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فان ما بينهما من الفرق في هـذا الشأن قدري عرضي وليس نوعياً جوهرياً . وهـذا ما يحـدونا الى القول بان المرأة كالرجل قابلة للرقي المعنوي من جميع وجوهه . ولما كانت المبادىء الاساسية للتربية والسلوك واحدة في الجنسين وجب ألا يبرح من ذهننا ان للمرأة حقاً في ورود المناهل التي يردها الرجل ومشاركتـه في ما يتمتع به من اللذات المختلفة بصفة كونه انساناً . ولذلك ينبغي تقوية ما فيها من السجايا الصالحة واصلاح ما فيها من الاميال الفاسدة

هذا ما تقتضيه مصلحتها الشخصية اولاً وهو ما تقتضيه مصلحة العائلة ايضاً ومصلحة البشرية جمعاء

قال فنلون : « أليس عليهن (أي على النساء) يقف عمـار البيوت وخرابها ؟ بل أليس تدبير المملكة المنزليـة من شأنهن — وهو ما يجعل لهن اليد الطولى في تكوين المألوف من العادات ؟ . . . وكيف يتوقع الرجـل راحة او هناء اذا تحولت الحياة الزوجية الى مرارة وشقاء ؟ بل ماذا يكون من أمر الاولاد وهم رجال الغد ان لم تعن بهم والدتهم حق العناية ؟ . . . »

فلهذه الاسباب جميعاً يجب تهذيب المرأة بقدر المستطاع لتضمن كرامتها وسعادتها

يجب تهيئتها لتكون زوجة واماً اذا أتيح لها ذلك ، ولكن يجب أيضاً ان تكون مهيئة العمل وحدها والاحتفاظ بمركزها حين لا يتاح لها ذلك . فعلينا ان نبذل جهدنا لنجعلها عاقلة رزينة في المقام الاول . وليس ما في طبيعتها من الضعف في الوقت الحاضر حجة لحرمانها من تلك التربية الصالحة بل يجب ان يكون حاثاً لنا ولها على السعي في ازالته

وقد اقتربنا الآن من درس الحركة النسائية التي أصبحت ذات شأن عظيم في هذا العصر فلندرسها بانصاف معتمدين على المعلومات التي اكتسبناها فيما تقدم

الفصل الثاني عشر

مصير المرأة (تابع)

ما تحتمله حالتها من أوجه التحسين

خليق بنا الآن ان نخوض هذا المبحث الخطير فنستقصي امر الحركة النسائية التي ما برحت تعظم شأناً في السنوات الاخيرة .على انه لا يزال في تلك الحركة بعض الغموض والابهام فلم تتفق الآراء بعد في هذا الشأن

ومهما يكن الامر فقد تضخمت هذه الحركة وعظم شأنها حتى لم يعد في الامكان اغفالها ولا سيما ان القائمين بها ليسوا من النساء فقط بل فيهم نفر من اعاظم الرجال . وانا ذاكرون فيما يلي بشيء من التفصيل آراء اثنين من اكبر المفكرين وهما جون ستيورت ميل الانكليزي وسكريتان السويسري

آراء جون ستيورت ميل

كتب ميل كتاباً بليغاً عن عبودية النساء Subjection of Women عد فيه من الظلم أن تكون المرأة خاضعة للرجل كما هي حالها اليوم بمقتضى الشرائع المدنية والسياسية في جميع الدول المتمدنة

ولا يرى ميل لذلك الخضوع مبرراً من الوجهة المعنوية . وتعليله الوحيد لحالتها الحاضرة هو تاريخها الماضي واستظهار الرجل عليها في القوة الجسمانية . وفي نظره انه ليس من علاج شاف للحيف الذي تحملته المرأة تلك الدهور الطويلة الا المساواة المطلقة بين الجنسين . ويدخل في ذلك تساويهما في ميدان السياسة ــ أي في حق التصويت وحق النيابة

وقبل التوسع في بيان آراء ميل يجدر بنا ان نشير الى تأثير امرأته في حياته . فقد وفق الى امرأة نادرة المثال كان لها اعظم اثر في نفسه . وهي التي اوحت اليه ما جاهر به من المطالبة بحقوق النساء والمدافعة عن قضاياهن ــ وفي ذلك ما يدعو الى

التأمل ولا سيما ان ميل كان مشهوراً بالتعقل والرزانة ومع ذلك فقد غالى في آرائه بتأثير العاطفة التي سيطرت عليه

ويتوقع ميل من هذا القبيل ثورة تصلح معها حالة النساء . فلقد هدم البشر في هذا العصر ما كان قائماً بين الطبقات المختلفة من الحواجز والسدود . وهذا هو ما يحمله على الاعتقاد بدنو العهد الذي تعتق فيه المرأة من عبوديتها — تلك العبودية التي لا مسوغ لها الا النقائص التي ولدتها في خلق المرأة مع توالي الزمن . وقد ذهب ميل الى ان عبودية المرأة أشد انواع العبودية لان السيد لا يدعي حقاً الا على جسم عبده . أما فيما يخص المرأة فالرجل لا يستعبد جسمها فقط بل يذل نفسها وفكرها وعاطفتها . فلا بد من انقلاب اجتماعي يساوي بين الرجل والمرأة في واجب التضحية الذي مابرح محصوراً فيها وحدها . ولا يعقل ان يتمادى المسيحيون — الذين يقولون بمساواة جميع البشر عند الله — في ظلم المرأة على تلك الصورة الوحشية . وفي نظره ان معاملة الرجل للمرأة قد مرت في ثلاثة أدوار :

اولاً دور الخضوع والاذلال

ثانياً دور الشفقة والتسامح

ثالثاً دور العدل والانصاف

وليس ينكر ان من الازواج من هم سعداء راضون بحالتهم لما يسود بينهم من روح العدل والاحترام المتبادل . فهؤلاء يجب عليهم ألا ينفوا ما في غيرهم من صنوف الشقاء الزوجي بحجة انهم لم يختبروها بانفسهم . ولا ريب ان اضراراً جسيمة تنجم عن تبعية المرأة لزوجها وسلطته على ممتلكاتها . ولذا ينبغي أن تملك المرأة زمام نفسها ومالها قبل الزواج وبعده . كما يجب ألا تحرم بزواجها شيئاً من نفوذها ومكانتها

اما اذا لم يكن الزوجان من أصحاب الاموال والاملاك وكانت نفقات الدار قائمة على أجور معينة او مكاسب محدودة فالافضل اذ ذاك أن يقسم العمل على هذه الصورة : الرجل يعمل في خارج المنزل للارتزاق والمرأة تعمل في داخله فتدبر شؤونه وتعنى بجميع لوازمه . وبهذا تحمل قسطها من اعباء الزواج — فضلاً عن مشاق الامومة . وهب ان الاحوال اضطرتها هي ايضاً للارتزاق فليس من العدل أن تسلم مكاسبها

الى زوجها ليضيعها في الحانة ـ وهو المشاهد في كثير من الاحيان [١] . فهذا الظلم ليس الا نتيجة احتياز الرجل للسلطة السياسية وسنه القوانين التي تلائمه . ولن تكون القوانين عادلة فيما يخص النساء اذا لم يشتركن في وضعها . ولذا لا يرى ميل خلاصاً من هذه الحالة الا بتخويل المرأة حق الانتخاب على وجهيه : اي أن تنتخِب وان تنتخَب

رأي سكريتان

أما سكريتان فقد ذهب الى نحو ذلك لاسباب شبيهة بالاسباب التي ارتآها ميل . قال : « ان الشريعة التي وضعها معشر الرجال وحدهم تجعل الزوجة خادمة والفتاة الفقيرة متاعاً » . أما علاج هذه الحالة السيئة فهو مشاركة المرأة للرجل في سن القوانين . قال : « لن تنال المرأة حريتها ما دامت محرومة حق الانتخاب ـ مهما تكن مقاصد اهل القانون حسنة من جهتها . . . والحقيقة ان الجنس القوي لم يعد المرأة الى هذا اليوم الا وسيلة للتناسل أو مخلوقاً للهو ... فعلى الزوجة بحكم القانون ان تجلب للرجل شخصها ومالها بلا مقابل . وعلى الفتاة الفقيرة ان تختار بين الموت جوعاً والسقوط في وهدة الفساد كما ان للرجل ان يغويها و يسلبها شرفها . . . ومهما تكثر الاحتجاجات في هذا الشأن فليس يرجى فيه اصلاح حقيقي الا بمنح النساء حق التصويت . ولم يسمع ان طائفة صاحبة امتيازات تنازلت عن امتيازاتها من تلقاء نفسها »

تمحيص المسئلة

ولكن المسئلة ليست على تلك البساطة . فلها شديدة التعقيد ويدخل فيها عوامل مختلفة لا بد من اعتبارها جميعاً . ولا يمكننا ان نفصل مسئلة حقوق المرأة من مسئلة تكوين العائلة التي هي أساس النظام الاجتماعي كله

فلندرس هذا الموضوع بما يستحقه من العناية متجنبين المغالاة في أحد طرفيه . وان من الحكمة في المسائل العملية ـ ولا سيما فيما يخص السياسة المدنية ـ « ان يجتنب الانسان تعكير ما هو صاف » . على ان ذلك لا يمنعنا من البحث عن مساوىء الحالة

(١) قد خولت القوانين الحديثة الى المرأة حق الاستيلاء على مكاسبها وعلى الخصوص القانون الفرنسي الصادر سنة ١٩٠٧

النسائية ووصف العلاجات الملائمة لها

اری من السائغ لنا ـ أولاً ـ ان تقرر هذه الحقيقة الاساسية : وهي ان النساء اللواتي يتزوجن زيجة هنيئة ويعاملن معاملة حسنة لا يخطر لهن التشكي من حالتهن . اذ يحلو لهن الخضوع للرجل فلا يطلبن تغييراً او تبديلاً فيما هن عليه . لانهن يدركن بفطرتهن ان نظام الطبيعة يقضي بذلك . وقد سلم ستيورت ميل نفسه بصحة هذا القول . ومما قاله في هذا الشأن انه لو أتيح للنساء جميعاً ان يتزوجن بازواج صالحين لم نسمع تململهن ولم يكن ثمت اثر للمسئلة النسائية ـ لا من الوجهة المعنوية اذ لا يخشى مع الحب والاحترام المتبادلين من الظلم والاستبداد ، ولا من الوجهة الاقتصادية اذ يتعاون الزوجان في النفقة بضم دخليهما اذا كانا من أهل اليسر أو بعمل الزوج وتدبير المرأة اذا كانا من العامة . فهذا هو مبتغى الطبيعة الذي لا جدال فيه : وذلك أن يعمل الرجل خارج المنزل ليكسب ما يسد به نفقة الاسرة وأن تدبر المرأة شؤون دارها بالحكمة والتوفير وأن تربي اولادها بما يلزمهم من العناية والرعاية

واذا اضطرت الى العمل للارتزاق فذلك في نفسه رزء على الاسرة ولا سيما اذا استغرق عملها معظم وقتها وحملها على اهمال اولادها . فلابد من التحوط لتلك الحالة . كذلك يجب الاهتمام لامر المرأة التي تتزوج من يظلمها وهي عاجزة عن حماية نفسها ، ولامر الفتاة الفقيرة ، واليتيمة المعدومة الاهل والسند ، والارملة المسكينة يحيط بها اولادها الجائعون ، والمرأة التي يفرض عليها اعالة أسرتها لطارئ اقعد زوجها ـ فتلك بعض البنود التي تتألف منها المشكلة النسائية

واذا امعنا النظر في تلك المشكلة وجدنا انها تنشأ عن ثلاثة أسباب رئيسية :

اولاً العزوبة القهرية التي يرغم عليها عدد غفير من الشابات

ثانياً الزيجة الرديئة التي تجعل المرأة تحت رحمة زوج قاس مستبد

ثالثاً الزواج في حالة الفقر والشقاء ، والترمل مع العجز عن القيام بأود الاسرة

واعتقادي الصميم انه لو أتيح لنا ابطال هذه الاحوال ـ التي هي منشأ ما تتحمله المرأة من الحيف والالم ـ تبطل اذ ذاك المشكلة النسائية بتمامها . فكل مسعى يرمي الى ملافاة ذلك او تخفيفه يعد خطوة في سبيل الحل المطلوب . فلنرَ اوجه الاصلاح في الاحوال المتقدم ذكرها ولنقابل بين ما تم من هذا القبيل وما لم يتم بعد

اصلاح التعليم النسائي

التعليم اول علاج لحالة المرأة بل هو أساس سائر العلاجات . فبالتعليم – وبه وحده – يتسنى لها أن تنال ماتبتغيه من المساواة المعنوية . وقد شهدنا في العصر الحديث تقدماً باهراً من هذا القبيل ولا سيما في بضعة العقود الاخيرة . فقد خطا تعليم البنات خطوات واسعة حتى اصبح الفرق عظيماً بين بنات هـذا الجيل وأمهاتهن وجداتهن . ولئن ظهر في الاجيال السابقة نساء نبغن في الادب فلم يكن ذلك الا من قبيل الشذوذ . فقد كان سواد النساء في حالة جهل شديد – سواء في ذلك الطبقات السفلى والطبقات المتوسطة بل اكاد اقول الطبقات العليا ايضاً . فانه كان يكفي المرأة « أن تعرف كيف تصلي وتحب وتخيط وتغزل » كما جاء في احدى الروايات الجونية الشهيرة (١)

أما اليوم فقد انتشر تعليم البنات في جميع الممالك الاوربية . فالتعليم الاولي في فرنسا اجباري ومجاني للبنين والبنات على السواء . كذلك انتشر فيها التعليم الثانوي وكثرت مدارسه – الاميرية منها والخصوصية . أما التعليم العالي فمباح ايضاً للشابات في اقسامه الاربعة : الآداب والعلوم والطب والحقوق . والمساواة تامة بين الجنسين في شروط الدخول والامتحانات . والحال كذلك في ايتاليا فانها نظيرة فرنسا في مساواتها بين الشبان والشابات من هذا القبيل

أما في المانيا (وفي النمسا ايضاً) فلا تزال معظم الجامعات مقفلة في وجه الشابات . واما في انكلترا فلهن مدارس عالية خاصة بهن منها مدرسة للطب في لندن فضلاً عن الجامعات التي قبلتهن في صفوفها . ولكن الجامعتان الكبيرتان (اكسفرد وكمبريدج) لم تقبلاهن رسمياً

ولعل الدول الاوربية الصغيرة ارقى من سواها في هذا المضمار . فالتعليم العالي مباح للبنات في اسوج ونروج ودانمارك وسويسرا وبلجيكا

وجملة القول ان هذه الحركة ذات شأن عظيم في التاريخ الاجتماعي الحديث . ولا بد أن تشمل البلاد التي لا تزال متخلفة في هذا المضمار . فالتعليم خير علاج لضروب الشقاء من الوجهتين المعنوية والمادية

(١) Et c'est assez pour elle, à vous en bien parler,
De savoir prier Dieu, m'aimer, coudre et filer

ولـكن لا يكفي أن نعلم الشابات تعليماً عالياً اذا لم نأذن لهن بالاستفادة منه . بل قد يضر التعليم ان لم يقرن بالعمل . فلننظر الآن في المهن والحرف المباحة للنساء

اباحة المهن للنساء

أرى في هذا الشأن انه تجب اباحة جميع المهن للنساء ما لم تهدد هذه الاباحة كيان العائلة ـ التي هي جرثومة الاجتماع . على أن هذا القول يحتاج الى الايضاح ولا سيما أن فريقاً عظيماً من الرجال يترددون في شأنه ـ خوف تخشن النساء وتغلظ اخلاقهن اكثر من خوفهم منافستهن لهم في سبل الرزق

على اني اعتقد ان هذا الخوف وهمي بدليل ما درسناه فيما تقدم من اخلاق المرأة . بل أرى ان الاستقلال الذي تكسبه المرأة من جراء ذلك لايعود بالفائدة عليها وحدها فانه يفيد العائلة أيضاً كما يفيد الهيئة الاجتماعيـة بترقية الاخلاق المألوفة وحمل الرجل على تعديل خطته نحو شريكته . ولو تراءى لي في ذلك المنهج أقل خطر على العائلة لقاومته بكل قواي . ولـكني أتوقع من ورائه رفعاً لشأن الاسرة اذ تخرج المرأة عن كونها مرغمة على قبول احدى حالتين تتساويان قبحاً وهما حالتا الاسترقاق والاسترخاء ـ أي ان تكون عبدة لسيدها أو اداة للزينة والزخرفة . ولست أرى في احتراف المرأة لاحدى الحرف التي قد تعينها على كسب رزقها حين تضطر الى ذلك ما يهدد الزواج أو الاسرة أو الهيئة الاجتماعية

ولـكن لئن وددنا ان تباح المهن للمرأة المسترزقة فالافضل لها ان تختار منها ما يلائم طبيعتها ومزاجها وما لا يمس فيها صفات الانوثة وروح الظرف والرقة . فمن الاعمال ما قد جُعل للرجال دون سواهم . على ان بعض السيدات الراتعات في الهناء والرخاء يشمئززن من نزول جنسهن في هـذا الميدان . قالت احداهن : « جعلت المرأة لتنظر من تحت الى فوق ولتكون امرأة في المقام الاول . ومن المستهجن ان تبغي النظر من فوق الى تحت وان تكون حامية الرجل » . حسن . ولـكن لا يبرحنّ من الذهن ان أول ما تحتاج اليه المرأة انمـا هو ان تعول نفسها ـ هذا اذا لم تضطر الى عول اولادها أو زوجها فضلاً عن نفسها . فلا لوم عليها اذا سلـكت هـذا المسلك وهي مرغمة على سلوكه . وانما اللوم في كثير من الاحيان على الذين يخدمون النساء فيستنزفون ما فيهن

من صحة ونشاط مقابل أجور ضئيلة لا تقوم باودهن . والحاصل مما تقدم انه تجب اباحة المهن للنساء ولكن تجب حمايتهن من استبداد المخدّمين وكل ما من شأنه مس وظيفتهن الاجتماعية

التعليم الصناعي

الصناعات على الاجمال مباحة للجميع ـ الا بعض الصناعات التي تستدعي شروطاً معلومة وهي التي لا يمكن تعاطيها الا باذن خاص كالطب والمحاماة والصيدلة ونحوها . فالمرأة من الوجهة القانونية ان تختار أي مهنة تشاؤها ، وما يسري على الرجل في هـذا الشأن يسري عليها . ولكن لكي لا تكون تلك الاباحة وهمية يجب ان تفتح لها أبواب التربية الصناعية . وقد أنشئت في أوربا مدارس كثيرة لتعليم البنات الصناعات الملائمة لهن كالصيدلة والرسم والطب والنجارة الدقيقة وزراعة الزهور والتصوير الشمسي وصناعة الساعات والحلويات الخ . . . ولا يزال مجال التقدم واسعاً في هذا المضمار

المرأة الطبيبة

ولا يستسهلن الرجل تحريم بعض المهن على المرأة استناداً على حجج تافهة أو وهمية . فلقد قام جدال شديد على أثر دخول النساء في سلك التطبيب وعد الكثيرون هذه المهنة خارجة عن دائرة الكفاءة النسائية . ولكني لست أجد مايدعم هذا النظر . أجل ان العلوم الطبية شاقة تستدعي جلداً ومثابرة ولكن الاختبار قد دل على انها ليست فوق قدرة النساء ولا ارى قط مانعاً عقلياً دون قيام المرأة بمهمة التطبيب ولا سيما اذا وجهت عنايتها الى الاولاد والنساء

ولعل الافضل لها أن تكون في غنى عن تلك المهنة . ولكنها اذا كانت مضطرة اليها فما المانع لها من احترافها وكيف تسوغ لنا الحيلولة دون استرزاقها ؟ بل بأي حق نسمح لها ان تتوظف في البوسطة والتلغراف والسكة الحديدية ونمنعها من ممارسة التطبيب

واذا قال معترض انه من الصعب على المرأة أن تضطر الى الخروج من منزلها في الليل لعيادة مريض في حالة الخطر او معالجة امرأة على وشك الوضع او نحو ذلك من الاحوال القاهرة فلينظر الى ما تقوم به المرأة المتحضرة عادةً من الزيارات والاجتماعات ـ في الليل وفي النهار ـ مما لا يجدي نفعاً ولا يعود بفائدة

ومهما يكن الامر فلا جدال في أن المرأة اقدر من الرجل على تطبيب بعض الامراض ومعالجة بعض الاشخاص

الوظائف العمومية

نريد بالوظائف العمومية تلك التي جعلت لخدمة الجمهور . ويجوز لنا التمييز بين نوعين منها ـ وان يكن من الصعب بيان الحد الفاصل بينهما : الوظائف العليا التي يباشر اصحابها السلطة الحكومية ، والوظائف الثانوية التي ليس لشاغليها سلطة جديرة بالذكر . وقد قُبلت النساء في الوظائف الصغيرة منذ زمن بعيد ولم يتح لهن بعد ـ الا في حوادث استثنائية ـ تقلد السلطة الحكومية الفعلية

ولكن الدلائل تدل جميعاً على ان المرأة ظافرة لا محالة في هذا المضمار ايضاً . فانها تشغل اليوم كرسي القضاء في بعض جهات الولايات المتحدة كما انها في فرنسا تراقب التعليم في مدارس البنات العالية وتجلس في « مجلس المعارف الاعلى » الذي له سلطة لا يستهان بها . ولها غير ذلك من الوظائف السياسية والادارية والقضائية في جهات مختلفة

ولا بد مع ذلك التطور من توسيع سلطة المرأة من الوجهة القانونية حتى لا تكون تحت رحمة زوجها وحتى يتيسر لها القيام بالاعمال القانونية التي تهمها من غير الاستعانة به . ولا ريب عندي أن الاستقلال الشخصي خير مدرب على الجد والكرامة . وقد دلت الاحصاءات على تزايد الفساد وتناقص المواليد بين اكثر الامم حجزاً لحرية المرأة وأشدها تحريماً عليها

الفصل الثالث عشر

مصير المرأة (تابع)

مسئلة الحقوق السياسية

لعل هذه المسئلة أدق المسائل الداخلة في مطالب النساء . فقد رأينا انه من الحكمة اباحة المهن لهن وانشاء المدارس الصناعية الخاصة بهن ، فضلاً عن ورودهن مناهل الفنون والعلوم والآداب . على اننا لا نتمنى ان تزج المرأة بنفسها دفعة واحدة في هذه الابواب المفتوحة لها حديثاً . فخير الاصلاح ما تم بالتدريج . وفي نظري ان أفضل ما حواه كتاب ستيورت ميل المشار اليه سابقاً هو ذلك القسم البليغ الذي بين فيه ما يكون من شعور المرأة بشأنها وكرامتها ورفعتها حين يتاح لها ان تحيا حياة تامة وتطمح الى حيازة فضائل غير فضيلة الامتناع عن نوع معلوم من الزلات

قال جول سيمون : « اننا في معاملتهن نبدأ عادة بالرفض ثم لا نلبث ان نمنحهن مطالبهن . . . فيجب منحهن كل ما يطلبنه الا اذا طلبن ان يكن رجالاً . لان ذلك يكون من شقائنا ومن شقائهن ايضاً »

ولكن ما المراد من ذلك ؟ وما هو الحد الذي اذا جاوزته المرأة تعدت على خواص الرجولة ؟ وما شأن الحقوق السياسية في ذلك ؟

لا نستطيع الاجابة على هذه المسئلة بجواب واحد ينطبق على جميع الامم . فانها تتفاوت في المزاج والتقاليد والرقي وما يصلح في واحدة منها لا يصلح حتماً في غيرها.(١)

أما فيما يخصنا نحن الفرنسيين فيتراءى لي ان الوقت لم يحن بعد لهذا الانقلاب. وعندي انه يجب الابتداء بمنح المرأة المزوجة شيئاً من الاستقلال في ادارة أمورها بحيث لا تكون خاضعة للسلطة الزوجية ذلك الخضوع الذي يفقدها ذاتيتها ويشل يديها عن كل عمل ،

---

(١) في آخر الكتاب فصل اضافي يبنا فيه حالة المرأة الواقعية في الممالك المتمدينة الى تاريخ كتابة هذا الكتاب (سنة ١٩١٨)

كما أنه من الوجب أيضاً حماية الفتاة ـ ولا سيما الفتاة الفقيرة ـ من الاخطار التي تكتنفها

على أن بعض زعماء الحركة النسائيـة يدعون أن اقرب طريق الى اصـلاح حالة المرأة ـ سواء في ذلك المزوجة وغير المزوجة ـ انما هو منحها حق الانتخاب الذي يخولها السلطة اللازمة لتحوير القانون وجعله في مصلحتها. ولـكننا اذا منحنا هذا الحق للعازبات والارامل دون سواهن ـ كما هو المطلوب في الغالب ـ كان عملنا هذا مجحفاً بالمرأة المزوجة . فان روح العدل لا تقبل تمييز غير المزوجة على المزوجة في هذا المضمار . أما اذا منحناه للمزوجة أيضاً فانه يخشى اذ ذاك من تراخي الرابطة الزوجية وزعزعة الوحدة العائلية ، في حين ان مصلحة المرأة ومصلحة المجموع تستدعيان توثيق هذه الرابطة وتوطيد تلك الوحدة

بل هل تغنم المرأة ربحاً حقيقيـاً اذا فتح لها ذلك الباب ؟ اني ميال الى الاعتقاد بان المرأة تفقد بهجتها ورونقها وبهاءها بل سعادتها أيضاً حالمـا تهجر دارها وتنزل ميدان المنازعات السياسية . فانها انما جعلت لتكون تحت حماية زوجها ولتشاركه في افراحه واحزانه . وترى كثيرات من المستنيرات يشعرن هذا الشعور فلا يعبأن بالحركة النسائية في صورتها تلك بل بينهن من يقاومنها في الفعل

على ان بين النساء من يجبن على ذلك بقولهن : « انا على يقين من ان مساواتنا بالرجال ستفقدنا شيئاً من رشاقتنا وظرفنا وخفة روحنا . ولـكننا نرضى بهذا الثمن ندفعه لنيل حريتنا واستقلالنا . وهذا شأننا نحن دون سوانا »

ولـكن هذا القول ليس صحيحاً فان المسئلة لا تخص المرأة وحدها . ولو كان هذا الامر مرتبطاً بمصلحتها فقط لما حق لنا أن نحول دون اختيارها المسلك الذي يروق لها . ولـكنه في الحقيقة مرتبط بمصلحة الاجتماع وهو يمس الاساسات التي يقوم عليها بناؤه

ولعلَّ أشد ما يخيفني من تهور المرأة في هذا الموضوع ما كان من تهور الرجل فيه . فقد دلنا الاختبار ويدلنا كل يوم على المساوئ الناجمة عن نظام الانتخاب العام ولا سيما قبل أن يستكمل الشعب تهذيبه السياسي . وهذا التهذيب يستدعي زمناً طويلاً كما لا يخفى . واذا كان الرجال ـ مع اختبارهم الطويل ـ لا يزالون متخلفين فيه فكيف بالمرأة التي تعدُّ أميـة في هذا المضمار . ولئن لم اوافق سبنسر على قوله ان المرأة اذا منحت سلطة سياسية استخدمتها لتوطيد الاحزاب الرجعية ومناصرة الحـكومة التي تعنى بالزخارف

والتقاليد فاني أخشى مع ذلك أن تنقضي الاجيال الطويلة قبل أن يتيسر للنساء اكتساب روح العدل والانصاف ـ وهو ما نشكو من نقصه في معشر الرجال

والارجح ان المرأة ـ اذا منحت حق التصويت ـ تسترشد الرجل الذي تحبه وتوقره .فكأنها تكتفي بتثنية صوته اذ ذاك . وأما اذا اتفقت النساء على مقاومة الرجال بحيث ينشققن عن ازواجهن وآبائهن واخوتهن فما أقبح ذلك المشهد وما اتعس الجماعة التي تهبط الى ذلك الجحيم !

قالت مدام دي ريموزا : « اننا حالما تقدم على تحريك ساكن في الامور الاجتماعية الجوهرية يبدو فيها التقهقر والانحلال »

أجل لست اعتقد ان تصويت النساء يخفف من مصائبنا بل انه يضاعفها على كثرتها . هذا ما أراه في شأن الحاضر . أما المستقبل البعيد فلا اجزم في شأنه . ولعل الزمن يستدعي تحوير حكمي السالف . فما علينا الا الانتظار . وقد رأينا في الرجال مساوئ الانقلاب السريع والاصلاح المعجَّل . فلنتحرز من هذا القبيل فيما يخص النساء

قال امار (وهو من رجال الثورة الفرنسية) : « لنعتبر قصور الرجال في تربيتهم السياسية ، فهي لا تزال في مهدها . أما النساء فلا يزلن دون الرجال استنارة ـ زد على ذلك ميلهن الفطري الى التطرف وهو ما يخشى أن يكون وخيم العاقبة في المسائل السياسية . . . » ومن ذا الذي ينكر أن هذا التحذير يصح ابداؤه في هذا اليوم ايضاً . فهل من الحكمة أن نزيد ذلك العامل الجديد على عوامل الفوضى السياسية التي تتخبط فيها

قد يتغير هذا الحكم ـ كما قلت ـ بعد زمن طويل . أما اليوم فان لدينا من أوجه الاصلاح ما هو ألزم لنا وأشد ملاءمة لاحوالنا . وتلك الاوجه كافية لتشغل جيلنا بل لتشغل بضعة اجيال قادمة

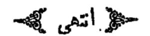
بل هل ابوح برأيي الصريح ؟ لا اعتقد البتة ان تلك هي وجهة التقدم . ولكن لا يحملن كلامي هذا على غير محمله. فاني في مقدمة القائلين بالمساواة المعنوية بين الرجل والمرأة أي بتساويهما في الشأن والكرامة والتهذيب . فلا خطر مطلقاً من هذا القبيل ما دامت المرأة تدرك انها امرأة قبل كل شيء أي انها جُعلت لتكون زوجة واماً في المقام الاول ، كما جُعلت لتدير المملكة البيتية وتتولى مهامها وشؤونها حتى تخيم عليها السعادة وتسود فيها المحبة والراحة والطمأنينة

ان المثل الأعلى للبشر يقضي بان يكون بين الجنسين ارتباط وثيق مع تباين وظائفهما . فتماثل الجنسين ليس مشاهداً الا في الشعوب المتوحشة . وكلما ارتقى الناس تميز كل جنس عن الآخر وتحددت وظائفه . هذا هو بلا ريب اتجاه الرقي البشري . والمرأة لا تبغي في الحقيقة غير ذلك . فلنحسن حالها بكل الوسائل الميسورة — في الحياة الزوجية وخارج الحياة الزوجية — ولنكن عادلين في معاملتها . ولكن لا يبرح من ذهننا مع ذلك ان أفضل وسيلة لاسعادها انما هي معاونتها تأليف على العائلة

ولنحذر التطرف في الروح الاستقلالية التي تفشت بين الافراد في هذا العصر — تلك الروح التي تهدد كيان العائلة وتلاشي الروابط المقدسة بين اعضائها بعضهم ببعض . فلا يذهب عن بالنا أن اتحاد العائلة وتماسكها أساس كل سعادة اجتماعية . واذا سلمنا بذلك سلمنا أيضاً بانه في الشؤون السياسية يكفي أن يكون الرجل نائباً عن الأسرة

فلتترك المرأة لرجلها ميادين السياسة والقتال ولتصرف همها الى تضميد الجراح وتسكين الآلام . بل هب انها استطاعت القيام بمهامنا فليس ذلك بذي شأن مادمنا نحن لا نستطيع القيام بمهامها التي جُعلت لها

واذا أحبت المرأة ان تخدم وطنها فانما تستطيع ذلك بتربية اولادها ليكونوا يوماً ما خدَمة صالحين لبلادهم يدركون معنى الواجب والتعاون والتضحية . بذلك تقوم بواجبها خير قيام ، وبذلك تسعد الامة وتحيا وتتقدم


انتهى

فصل اضافي

تاريخ الحركة النسائية

في العصر الحديث

رأينا ـ اتماماً للفائدة ـ ان نذكر تاريخ الحركة النسائية الى حين كتابة هذا الكتاب في منتصف سنة ١٩١٨ (أي بعد انقضاء اربع سنوات من الحرب الاوربية) حتى يتضح لنا ما نالته النساء من الحقوق في الدول المتمدينة ولا سيما في اثناء الحرب . فلقد حملت النساء من اعبائها قسطاً لا يستهان به حتى قال احد الكتاب « ان ما خسرته البشرية من القدرة والنشاط بفقد الرجال قد استعاضت عنه بما نالته النساء من البراعة والتقدم في الصنائع والفنون »

ويرجع المطالبون للنساء بالحقوق السياسية ـ دعماً لقضيتهم ـ الى الزمن السابق للدور التاريخي . فيقولون ان نظام الامومة منتشر بين جميع الامم في اول أمرها ، ولا يخفى انه كان للمرأة فيه المقام الاول . ثم يتدرجون مبينين ما كان من مداخلة المرأة في الشؤون السياسية في أزمنة وأمكنة مختلفة مما ليس هذا محل الافاضة فيه . وانما غرضنا ان نبين ما كان من تلك الحركة في العصر الحديث أي من ايام الثورة الفرنسية الى هذا اليوم . ويجدر بنا ان نقسم هذه المدة الى قسمين : قسم يشمل المدة السابقة للحرب الاوربية (من ١٧٨٩ ـ ١٩١٤) . والقسم الاخر يتناول تلك الحرب في سنواتها الاربع الماضية (من ١٩١٤ ـ ١٩١٨)

اولا ـ من ١٧٨٩ الى ١٩١٤

﴿ فرنسا ﴾ ان الثورة الفرنسية التي هدمت كل قديم ـ مع انها اعترفت ضمناً بمساواة الجنسين ـ قد خصت حق التصويت بالرجال وحدهم . على انه قد قام في ذلك العهد نفر من النساء المستنيرات للمطالبة بالمساواة المطلقة منهن اولامب دي جوج التي طلبت « اعلان حقوق المرأة » اسوة « باعلان حقوق الرجل » . وانضم الى هذه الحركة نفر ليس بقليل من الرجال والنساء وتألفت الاندية لهذ الغرض والقيت الخطب وعقدت الاجتماعات . ولكن تلك الحماسة لم تلبث ان خمدت حتى انه لما استأثر

نابوليون بالحكم بعد عودته من مصر لم يكن لها في فرنسا أقل أثر . ولكن تلك الفكرة بعثت بعد حين ولا سيما في سنة ١٨٤٨ (وهي السنة التي اعلنت فيها الجمهورية للمرة الثانية) واتخذت المساعي اذ ذاك وجهة عملية . غير انه حالما انقضى عهد الجمهورية الثانية (سنة ١٨٥٢) سكنت الحركة . أما الجمهورية الثالثة (الحالية) فلئن كان للمرأة فيها شأن لا يستهان به اذ فُتحت لها ابواب كثيرة كانت مغلقة في وجهها فانها لم تنلها حق التصويت السياسي

﴿ انكلترا ﴾ يرجع تاريخ مطالبة النساء بالحقوق السياسية في انكلترا الى سنة ١٧٩٠ وأول المطالبات بها ماري ولستونكرافت . وليس من يجهل ما كان من معاضدة ستيورت ميل الفيلسوف الانكليزي للنساء . فقد قدم لمجلس العموم سنة ١٨٦٠ بصفته احد نوابه عريضة امضتها ١٤٩٩ امرأة يطلبن فيها تحريرهن السياسي. ولكن المجلس رفض الطلب . وقد تبع ميل جون برايت ففاز فوزاً جزئياً اذ منحت النساء في سنة ١٨٦٩ حق التصويت فيما يخص الشؤون البلدية . ومن ذلك الحين أخذت سلطة النساء الانكليزيات في الاتساع : ففي سنة ١٨٧٠ منحت المرأة حق التصويت وحق العضوية في المجالس المدرسية (Schools Boards) وفي سنة ١٨٧٥ منحت حق التصويت في انتخابات مجالس الاعانة العمومية Boards of Guardian وفي سنة ١٨٨٨ حق الانتخاب في مجالس المقاطعات وفي سنة ١٨٩٤ حق العضوية في مجالس الاعانة العمومية وفي سنة ١٩٠٧ حق العضوية في مجالس المقاطعات . على ان تلك الخطوات لم تقنع النساء الانكليزيات فانهن انما يطلبن حق الانتخاب وحق العضوية في البرلمان . وقد تقدمت اقتراحات كثيرة في هذا الشأن ولا سيما سنة ١٨٧٠ و ١٨٨٤ و ١٩١٠ و ١٩١٣ كانت على وشك النجاح

ويجدر بنا التمييز في انكلترا بين فريقين من المطالبات بالحقوق السياسية: فريق يستخدم الطرق السلمية لنيل غرضه ، وفريق يعمد الى الوسائل الجبرية والمظاهرات الفعلية وهو فريق السوفراجيت Suffragettes . ومهما يكن الامر فان الجمعيات النسائية قبل الحرب كانت تضم اكثر من ٦٠٠٠٠٠ امرأة

﴿ المستعمرات الانكليزية ﴾ وفي حين لم تمنح انكلترا رعاياها من الجنس اللطيف حق الانتخاب للبارلمان سبقتها مستعمراتها في هذا المضمار ولا سيما استراليا

ونيوزيلندا . ففي سنة ١٩٠٧ كانت النساء قد نالت فيها كل الحقوق السياسية التي طالبت بها وآخرها حق التصويت في انتخابات البرلمان وحق العضوية فيه

أما في كندا فلم تنل النساء الا حق الانتخاب لمجالس البلديات

﴿ البلاد السكنديناقية ﴾ ان البلاد السكنديناقية اقدم البلاد اعترافاً بحقوق النساء . ففي اسوج كان لصاحبات الاملاك نفوذ سياسي في المجالس المحلية منذ زمن بعيد . وفي سنة ١٨٦٢ منح حق الانتخاب البلدي اللواتي يدفعن ضرائب تقدر بنحو ٧٠٠ فرنك في السنة على الاقل . ثم منح هذا الحق لجميع النساء بلا تمييز في سنة ١٩٠٩. ومع ذلك لم تنل المرأة حق الانتخاب للبرلمان . كذلك كان الحال في الدانمارك

أما في فنلندا ونروج فقد حازت النساء قبل الحرب بسنوات حقي التصويت والعضوية في المجلس النيابي فضلا عن المجالس البلدية والمحلية .

﴿ الولايات المتحدة ﴾ واما في الولايات المتحدة فان الفرق ظاهر بين الولايات المستجدة والولايات القديمة . ففي الولايات الشرقية (وهي اقدمها) لم تنل المرأة الا نجاحاً ضئيلاً اذ منحت حق التصويت للمجالس المدرسية (في ١٨ ولاية) وحق التصويت فيما يختص بفرض الضرائب (في ٣ ولايات) ولكنها حرمت هذا الحق فيما يتعلق بالمجالس البلدية والمجالس النيابية

أما في الولايات الغربية فقد نمت الافكار الحديثة وانتشرت انتشاراً عظيماً . فانك تجد المساواة تامة بين الجنسين في الحقوق السياسية في ولاية ويومنغ منذ سنة ١٨٦٩ وقد تبعتها ولايات كولورادو ، يوتا ، ايداهو ، واشنطن ، كاليفورنيا ، اريزونا ، كنزاس ، اوريغون ، نيفادا ، مونتانا (سنة ١٩١٤)

﴿ المانيا والنمسا ﴾ ان الدول الجرمانية متخلفة في هذا الشأن عن الدول السكنديناقية والسكسونية . فللمرأة في المانيا حق الانتخاب البلدي ضمن دائرة محدودة وبشروط معينة . ويقال مثل ذلك في النمسا

ثانيا — من سنة ١٩١٤ الى ١٩١٨

لقد كانت الحرب الاوربية دافعاً للحركة النسائية فنالت النساء في مدة قصيرة ما لم ينلنه في سنوات طويلة

ففي انكلترا نجحت الحركة النسائية نجاحاً عظيما اذ ناصرها الجميع من اشترا كيين واحرار ومحافظين ـ الا نفراً قليلا من الرجعيين ـ فقد عد الانكليز منح المرأة الحقوق السياسية اجدر مكافأة لها على خدماتها الجليلة في اثناء الحرب . فقامت بهذه الدعوة امهات الجرائد الانكليزية كالتيمس والديلي ميل . وفي نوفمبر سنة ١٩١٧ اقترح في البرلمان « منح حق الانتخاب لكل امرأة بلغت من العمر ٣٠ سنة على شرط ان تكون مزوجة برجل له حق الانتخاب وان تكون حائزة لحق الانتخاب البلدي او حاصلة على لقب من الالقاب العلمية » . ومع ان بعض المحافظين قاوموا هذا الاقتراح في مجلس اللوردة فقد نال الاغلبيـة وأصبح قانوناً وبه حازت ٦٠٠٠٠٠٠ امرأة انكليزية الحقوق السياسية التامة

أما روسيا التي هي أحدث الدول الديمقراطيـة فقد حررت المرأة دفعة واحدة من كل قيد ومنحتها حق التصويت وحق العضوية في المجالس النيابيـة المختلفة . ولم يكن للمرأة الروسية فيما مضى الا حق ضئيل في الانتخابات البلدية

وقد تقدمت قضية النساء في الولايات المتحدة بعد الحرب فزاد عدد الولايات التي خولتهن الحقوق السياسية وكان أعظم فوز لهن في ولاية نيو يورك التي كانت تعد مركزاً لمقاومة الحركة النسائية

ونالت النساء حقوق الانتخاب في عدة مقاطعات كندية

وفازت المجريات اثنـاء الحرب فوزاً جديراً بالذكر اذ منح حق التصويت للواتي يدفعن قدراً معلوماً من الضرائب . والامل معقود بتوسيع مجال هذا الحق

ولم يقتصر فوز النساء على البلاد المحاربة . فقد نالت نساء الدانمارك حقوقهن في سنة ١٩١٥ . كذلك ابيح للنساء دخول البرلمان الهولندي ولـكن من دون ان يكون لهن حق التصويت فيه

أما فرنسا فانها لم تمنح المرأة حقوق الانتخاب السياسي ولـكن الحركة النسائية فيها آخذة في التضخم والمتوقع ان تمنح النساء على الاقل حق الانتخاب للمجالس البلدية ومجالس المقاطعات .


Bibliotheca Alexandrina
03382760